

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

مِنَ السَّهْرِ الْمَجْهُولِ إِلَى سِرِّ الْوُجُودِ



رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

سورة النَّارِيَّاتِ

من السر المجهول إلى سر الوجود

رداد السلامي

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

يقول الشيخ إبراهيم السكران: في أوائل سورة الذاريات لما ذكر الله أهوال يوم القيامة توقف السياق ثم بدأت الآيات تلوح بذكر فريقٍ حصد السعادة الأبدية واستطاع الوصول إلى «جناتٍ وعيون»، ولكن ما السبب الذي أوصلهم إلى تلك السعادة بين مجاهل تلك الأهوال؟ إنه (السهر المجهول)! تأمل كيف تشرح الآيات سبب وصول ذلك الفريق إلى الجنات والعيون: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

وما أعمق عبارة السكران هنا: «السَّهَرُ المَجْهُولُ».

ليست القضية أنه سهرٌ فقط، بل أنه مجهول؛ أي لا تصاحبه أضواء الناس، ولا تصفيق الجمهور، ولا يراه أحدٌ في دفاتر المنجزات. إنما هو عملٌ يقع في المنطقة التي لا يصل إليها إلا علم الله: آخر الليل، حين تنام العيون، وتهدأ البيوت، وتسكن الأصوات، ويغيب المسرح الاجتماعي كله.

والآية عجيبة في ترتيبها: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

ثم كأنها تفتح لنا نافذة على سرِّ هذا الإحسان: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

أي أن الإحسان لم يكن زينةً خارجية في السلوك، ولا أدبًا اجتماعيًا فقط، بل كان له جذرٌ خفي في الليل.

هناك، في العتمة، كان يتكوّن الإنسان الذي يراه الناس في النهار محسنًا.

وهذا من أعجب أسرار القرآن: أنه لا يفسّر المجد الأخروي بالأعمال الصاخبة وحدها، بل يردّه أحيانًا إلى عباداتٍ خافتة.

إلى سجدةٍ لا يعلم بها أحد.

إلى دمعةٍ لم تُصوّر.

إلى قيامٍ بين العبد وربّه حين لا يبقى من شهود الأرض شاهد.

(جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) جاءت بعد أهوالٍ تهزّ الوجود، ثم يُكشف السبب:

ليس نسبًا.

ولا شهرةً.

ولا ادعاءً.

ولا خطابةً عن الصلاح.

بل: كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون.

كأن القرآن يقول:

من أراد أن ينجو في الزحام الأكبر، فليصنع بينه وبين الله خلوةً لا يزاحمه فيها أحد.

والتعبير بـ (قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ) بديع؛ لأن الليل في طبيعته موضع النوم، فإذا

صار النوم فيه قليلًا، دلّ ذلك على أن القلب وجد ما هو ألدّ من الرقاد.

فالعبد لا يترك فراشه البارد لمجرد تكليفٍ ثقيل، إلا إذا سبقته محبة، أو غلبه خوف، أو جذبته رجاء.

قيام الليل ليس حركة بدن فقط؛ إنه إعلان صامت أن القلب لم يعد يكتفي
بنهارٍ مزدحم، بل صار يحتاج إلى موعدٍ خاص مع الله.

ثم تأتي الآية بعدها: ﴿وَيَا لَأَسْحَارٍ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

وهنا تكتمل الدهشة:

قاموا الليل، وقلَّ هجوعهم، ثم لم يدخلوا الصباح معجبين بقيامهم، بل دخلوا
مستغفرين منه.

وهذه هي العبادة حين تبلغ صفاءها:

كلما اقترب العبد من الله، رأى تقصيره أوضح.

وكلما طال قيامه، خجل من قلة وفائه.

وكلما أضاءت روحه، رأى غبار نفسه.

لذلك لم تقل الآيات: كانوا بالأسحار يفتخرون.

ولا: كانوا بالأسحار يذكرون أعمالهم.

بل: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فكان طريقهم إلى الجنات والعيون لم يكن السهر وحده، بل السهر الذي لا

يصنع غرورًا.

قيامٌ يتبعه انكسار.

طاعةٌ تحرسها توبة.

إحسانٌ لا ينسى فقره إلى عفو الله.

وهذه هي اللمة التي التقطها السكران بذكاء إيماني: أن وراء السعادة الأبدية أعمالاً لا تُرى، وأن كثيراً من المصائر العظيمة تُصنع في ساعاتٍ صغيرة مجهولة.

قد يظن الإنسان أن مستقبله الأخرى يُبنى في المشاهد الكبرى فقط، بينما القرآن يردّه إلى لحظةٍ في السحر، إلى ركعتين في الظلام، إلى استغفارٍ خافتٍ بعد قيامٍ طويل.

إنها هندسة النجاة الخفية:

في النهار إحسان. وفي الليل قيام. وفي السحر استغفار. وفي الآخرة: جنات وعيون.

ومن هذا المدخل كانت هذه السورة بالذات تصلح لتأليف كتاب شديد

الامتياز؛ لأنها ليست سورة معلومات، بل سورة إيقاظ.

سورة تمسك الإنسان من غفلته، وتهزه بين السماء والأرض، والرزق

واليقين، والقيامة والليل، والضيافة والخوف، والريح العقيم، ثم تختمه

بسؤال الوجود الأكبر: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

أي أن السورة تبدأ بالقسم الكوني، وتنتهي بتحديد وظيفة الإنسان.

كأنها تقول: هذا الكون الهائل ليس فراغاً، وهذه الرياح ليست عبثاً، وهذه

السماء ليست سقفاً صامتاً، وهذه الأرض ليست تراباً أعمى، وهذا الإنسان لم

يُخلق ليأكل ويمضي، بل ليعرف، ويوقن، ويعبد.

الفكرة الحاكمة للكتاب

سورة الذاريات ليست مجرد عرضٍ لأهوال القيامة أو قصص المكذابين، بل هي سورة تبني في الإنسان يقيناً مضاداً للغفلة.

إنها تنقل القارئ من اضطراب الظن إلى ثبات الوعد، ومن عبودية الرزق إلى عبودية الرازق، ومن نوم الليل إلى سرّ القيام، ومن مشهد الكون المتحرك إلى الغاية العظمى من خلق الإنسان.

هي سورة تسأل الإنسان بصمتٍ مزلزل:

أين أنت من الوعد؟

أين أنت من الرزق؟

أين أنت من الليل؟

أين أنت من العبادة؟

أين أنت من الله؟

مقدمة الكتاب

ليست سورة الذاريات سورةً تمرّ على القلب مرورًا هادئًا.
إنها تهبّ عليه.

تهبّ كما تهبّ الرياح على غبارٍ تراكم طويلاً، فتفضح ما كان ساكنًا، وتحرك ما ظنّ أنه قد استقر. تبدأ السورة بحركة كونية عنيفة في ظاهرها، عميقة في باطنها: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا ۖ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۖ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۖ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾

كأن القرآن لا يبدأ هنا بخطابٍ مباشر للإنسان، بل يبدأ بتحريك المشهد كله حوله.

الرياح تذرّو.

والسحب تحمل.

والسفن أو النجوم أو المخلوقات الجارية تمضي بيّسر.

والأمر يُقسّم في ملكوت الله.

ثم يأتي الجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

وهنا تبدأ دهشة السورة.

فالإنسان قد يظن أن الحديث عن القيامة يحتاج إلى برهانٍ ذهني مجرد، فإذا

بالقرآن يوقظه بالكون. كأن الوعد ليس فكرةً معلقةً في الفراغ، بل حقيقة

يشهد لها نظام الوجود كله.

فالريح التي لا تراها وهي تعمل، تراها في آثارها.
والسحاب الذي لا تملك خزائنه، يأتيك برزقه.
والأمر الذي لا تعرف كيف يُدبّر، ينزل إلى حياتك في موعده.
فلماذا تصدق أثر الريح، ولا تصدق أثر الوعد؟
ولماذا ترى المطر بعد غيبته ممكناً، وترى البعث بعد الموت بعيداً؟
ولماذا تؤمن بأن السماء تحمل ماءك، ثم تضطرب إذا قيل لك: إن السماء
تحمل رزقك ووعدك ومصيرك؟

هذه السورة تريد أن تنزع من الإنسان مرضاً خطيراً:
مرض العيش داخل الظاهر وحده.

فالظاهر يقول: الأرض هي موضع الرزق.
والسورة تقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

والظاهر يقول: الليل للنوم.
والسورة تقول عن أهل الجنة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

والظاهر يقول: الحياة للأخذ والتملك والتوسع.
والسورة تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

والظاهر يقول: الهروب يكون من الخطر.
والسورة تقول: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾.

أي انقلابٍ هذا في مقاييس النظر؟

إنها سورة تعيد ترتيب الاتجاهات في روح الإنسان.

تقول له: أنت تهرب كل يوم، ولكن إلى أين؟

تهرب من الفقر إلى المال.

ومن الخوف إلى الأسباب.

ومن القلق إلى الانشغال.

ومن الفراغ إلى الضجيج.

ومن ضعفك إلى الناس.

لكن الفرار الأعظم ليس من شيء إلى شيء، بل من كل شيء إلى الله.

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

هذه الآية وحدها تكاد تكون روح السورة كلها.

لأن السورة من أولها إلى آخرها تكشف أن الإنسان محاطٌ بالله من جهاته كلها:

في الريح.

في الرزق.

في الليل.

في البعث.

في التاريخ.

في مصائر المكذبين.

في خلقه الأول.

في حاجته الأخيرة.

فإلى أين يذهب من كان الله وراءه وأمامه وفوقه ومعه بعلمه وتدبيره؟
إلى أين يفرّ من لا مخرج له إلا إلى ربه؟

ليست سورة الذاريات تخويفاً مجرداً، ولا ترقيقاً عابراً، ولا عرضاً تاريخياً
لمصارع الأمم.
إنها بناءٌ كامل لليقين.

تبدأ من الكون؛ لأن القلب الغافل يحتاج أن يرى الحركة الكبرى حوله.
ثم تنتقل إلى القيامة؛ لأن الإنسان لا يستقيم حتى يعرف أن الطريق له نهاية.
ثم تفصح الخراصين؛ لأن الظن إذا حكم القلب جعله يستهزئ بالحق.
ثم تعرض أهل الجنة؛ لأن السورة لا تكتفي بذكر الهالكين، بل تفتح نافذة
على الناجين.

ثم تكشف سرهم: كانوا محسنين، وكانوا يسهرون لله، وكانوا يستغفرون
بالأسحار.

ثم ترفع النظر إلى السماء: رزقكم هناك.
ثم تأتي بقصة إبراهيم؛ حيث الضيافة والخوف والبشارة، ليظهر أن تدبير
الله يدخل البيت الهادئ كما يدخل التاريخ العاصف.
ثم تمرّ على عاد وثمود وفرعون وقوم نوح؛ لتقول إن التكذيب ليس رأياً
فكرياً بريئاً، بل طريقٌ له نهاية.

ثم تبلغ القمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

هنا تسكت كل الفلسفات الصغيرة.

لم يُخلق الإنسان ليكون رقماً في السوق.
ولا ظلاً في الزحام.

ولا جسداً يطلب لذته ثم ينطفئ.
ولا عقلاً يتكبر حتى ينسى خالقه.
ولا كائنًا يركض خلف رزقه حتى يموت قبل أن يعرف رازقه.
خلق ليعبد.

والعبادة هنا ليست طقساً محصوراً في زاوية، بل هي المعنى الذي يردّ
الإنسان إلى حجمه الصحيح ومقامه الصحيح.
أن تعرف أنك عبد، فهذا ليس انتقاصاً منك، بل إنقاذ لك من عبودياتٍ أدنى.
فمن لم يعبد الله، عبد شيئاً آخر.
عبد خوفه.
أو شهوته.
أو رزقه.
أو صورته أمام الناس.
أو سلطانه.
أو جرحه.
أو فكرته عن نفسه.

والسورة تريد أن تنقذ الإنسان من هذه العبوديات المتناثرة، لتجمعه على
عبوديةٍ واحدة، عالية، محررة:

أن يكون لله.

من هنا سيكون هذا الكتاب محاولةً للإنصات إلى سورة الذاريات لا بوصفها
نصاً يُشرح فقط، بل بوصفها ريحاً قرآنية تهبّ على القلب.

سنقرأها وهي تحرك الغبار.
وهي تهزّ اليقين النائم.
وهي تردّ الرزق إلى السماء.
وهي تردّ الليل إلى العبادة.
وهي تردّ التاريخ إلى العبرة.
وهي تردّ الإنسان إلى الغاية التي خُلق لها.
ليست المسألة أن نفهم السورة فقط.
بل أن نخرج منها مختلفين.

أن نرى الريح فلا نراها حركة هواء فحسب، بل جندياً من جنود التدبير.
وأن نرى الرزق فلا ندلّ لأبواب الخلق.
وأن نرى الليل فلا يكون كله نومًا، بل يكون بعضه سرًّا بين العبد وربّه.
وأن نرى العبادة فلا نحسبها عبئًا، بل نكتشف أنها معنى الوجود كله.

هذه سورة لا تقول للإنسان: تأمل الكون فقط.
بل تقول له: اقرأ مصيرك في الكون.
ولا تقول له: خف من القيامة فقط.
بل تقول له: ابن يقينك قبل أن تراها.
ولا تقول له: اعبد فقط.
بل تقول له: افهم أنك لم تُخلق إلا لهذا الشرف.

فإذا انتهى القارئ من سورة الذاريات، ينبغي أن يبقى في داخله صوتٌ واحد:

لا تركض بعيدًا.

لا تتوه في الظنون.

لا تستعبدك الأسباب.

لا تنم عن موعدك الخفي مع الله.

لا تجعل الرزق إلهاً صغيراً في قلبك.

لا تنس أن الطريق ينتهي.

لا تنس أنك مخلوقٌ لعبادة الله.

ثم اسمع نداء السورة، مختصرًا كثيفًا مزلزلًا: **فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ.**

الفصل الأول

بين الريح والوعد

قراءة في مطلع السورة: (وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا)

تبدأ سورة الذاريات بدايةً لا تمنح القارئ فرصة للهدوء.

لا تقول له أولاً: يا أيها الإنسان.

ولا تبدأ بحكاية.

ولا تفتتح بسؤال.

بل تضعه مباشرةً أمام حركةٍ كونيةٍ متتابعة: (وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ۝)

فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ۝

أربع صور متلاحقة.

أربع حركات.

أربع طبقات من التدبير.

كأن السورة لا تريد أن تخاطب الإنسان وهو جالس داخل ضيق نفسه، بل

تريد أن تخرجه أولاً إلى الكون، إلى الجهات المفتوحة، إلى الرياح،

والسحاب، والجريان، وتقسيم الأمر.

هناك شيء يتحرك.

وهناك شيء يُحمل.

وهناك شيء يجري.

وهناك أمرٌ يُدبّر.

وهذا وحده كافٍ ليهزّ وهم الإنسان عن نفسه.

فالإنسان إذا غفل، تخيّل أن الحياة واقفة عند حدود عينه.

ما يراه هو الموجود.

وما لا يراه كأنه بعيد أو مؤجل أو غير مؤثر.

لكن القرآن يفتح له مشهداً آخر: ليس الوجود ساكناً كما تتوهم.

هناك حركةٌ خفية وعلمية، وهناك جنود لا تراها، وهناك تدبير لا تملك

مفاتيحه، وهناك أوامر تُقسّم في ملك الله وأنت لا تدري.

إنك تنام، والكون لا ينام.

تغفل، والتدبير لا يغفل.

تضيّق، والسماء تعمل.

تخاف، والأمر يجري في طريقه.

تحسب أن الأشياء متروكة للمصادفة، فإذا بالسورة تقول لك من أولها:

انتبه، ليس في هذا الوجود فراغ. كل شيء يتحرك بأمر.

١. الريح التي تكشف الغيب

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا﴾

الذاريات هي الرياح التي تذرّو، تفرّق، تنشر، تثير، تحمل الغبار والحبّ

والأشياء الدقيقة.

والريح من أعجب آيات الله؛ لأنها مخلوقٌ لا يُرى في ذاته غالبًا، ولكن آثاره لا تُنكر.

لا ترى الريح، ولكن ترى الشجر يميل.
لا تمسكها بيدك، ولكن ترى الغبار يرتفع.
لا تعرف طريقها الكامل، ولكن ترى أثرها في وجه الأرض.
كأنها درسٌ مبكر في الإيمان بالغيب: ليس كل ما لا تراه معدومًا.
وهنا يلوح سرّ افتتاح السورة بالريح.

فالإنسان الذي ينكر البعث أو يشكّ في الوعد، مشكلته العميقة أنه يريد أن يحاكم الغيب إلى عينه القاصرة.
يريد أن يرى كل شيء حتى يصدق.
يريد أن يدخل الغيب تحت سلطانه الحسي.
لكن الريح التي يعيش معها كل يوم تقول له: أنت تؤمن بأشياء كثيرة لا تراها في ذاتها، لأن آثارها أقوى من إنكارك.

فلماذا إذا جاء وعد الله اضطربت؟
ولماذا إذا حدثك الوحي عن الآخرة قلت: أين هي؟
وهل كل حقٍ يجب أن يكون معروضًا أمام عينك حتى يكون حقًا؟

الريح تعلّم الإنسان أن اللامرئي ليس ضعيفًا.
بل قد يكون اللامرئي هو الذي يحرك المرئي.

كم من شيءٍ في حياتنا كذلك.
النية لا تُرى، لكنها تغير قيمة العمل كله.

الإيمان لا يلمس باليد، لكنه يرفع الإنسان من التراب إلى المعنى.
الخوف لا يظهر كجسم، لكنه يقود قرارات أمة.
الحب لا صورة له، لكنه يبني بيتاً ويصبر على عمر.
والوعد الإلهي لا تراه عينك اليوم، لكنه أصدق من كل مشهدٍ عابر؛ لأنه
صادر عن الله.

لهذا يبدأ القرآن بالذاريات.
كأن الريح تقول للغافل: لا تجعل عينك إلهاً صغيراً للحقيقة.

٢. من الذرو إلى الحمل

ثم تأتي الآية الثانية: (فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا)

انتقلت الحركة من الذرو إلى الحمل.
من التفريق إلى الجمع.
من الرياح التي تثير وتنشر، إلى السحب التي تحمل وقرها، أي حملها
الثقيل.

وهذا الانتقال عجيب.

فالريح التي تبدو في ظاهرها مفرقة، تكون في نظام الله مقدمةً للحمل.
تثير، ثم تحمل السحب.
تفرق الغبار، لكنها تهئ المطر.
ترعج سطح الأرض، لكنها تخدم حياة الأرض.
وهكذا كثيرٌ من أقدار الله.

قد تبدأ في حياتك على هيئة ذرو واضطراب.

يتفرق شيء كنت تحسبه ثابتًا.

يتحرك ساكن كنت تركز إليه.

تهبّ رياح على ترتيبك الهادئ.

ثم لا ترى في أول الأمر إلا الغبار.

ولكن وراء الذرو حملاً.

ووراء الحركة تدبيرًا.

ووراء الاضطراب رحمة قد لا تظهر لك إلا بعد حين.

ليست كل ريح تأتي لتكسر.

بعض الرياح تأتي لتدفع السحاب إلى أرضك اليابسة.

وهذه قراءة لا يمنحها القرآن للإنسان المترف في ظاهره، بل يمنحها للقلب

الذي تعلم أن الأقدار لا تُقرأ من أول هبة.

كم من ريح في حياتك حسبتها خرابًا، فإذا بها كانت تمهيدًا لمطر.

وكم من تبدلٍ ألمك، ثم اكتشفت أنه حمل إليك رزقًا أو وعيًا أو نجاة.

وكم من اضطرابٍ كرهته، وكان الله يخرجك به من ركودٍ طويل.

الآية لا تقول ذلك تصریحًا، لكنها تفتحه لمن قرأ حركة الكون بعين القلب.

(فَالْحَامِلَاتِ وَقرًا)

الكون ليس سطحًا مضطربًا.

إنه نظام يحمل.

والريح ليست عبثًا.

إنها جند.

والسحاب ليس كتلة عابرة.

إنه خزان رحمة.

والحمل الثقيل ليس دائماً علامة شدة، فقد يكون ثقله ثقل الماء الذي يحيي.

٣. الجريان اليسير في ملك الله

ثم يقول الله: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾

هنا تتبدل الصورة مرة أخرى.

بعد الذاريات والحاملات، يأتي الجريان يُيسر.

كأن السورة تقول: ليس التدبير الإلهي مجرد قوة، بل قوة منقادة لأمر الله في يسر.

ما نراه نحن هائلاً، يجري في ملك الله ميسراً.

وما نراه بعيداً، هو في علم الله في طريقه.

وما نحسبه معقداً، يجري عند الله بلا عجز ولا اضطراب.

وهذه الآية تضع الإنسان أمام فرقٍ شاسع بين عسر المخلوق ويسر الخالق.

نحن نتعب في حمل الأشياء الصغيرة.

نتردد في القرار.

نحسب المقدمات والنتائج.

نخاف من نقص الأسباب.

نخطط ثم تفاجئنا الاحتمالات.

أما في ملك الله، فالأشياء تجري بأمره:

السفن في البحر.
والنجوم في الفلك.
والسحب في السماء.
والأقدار في طريقها.
والأرزاق إلى أهلها.
والآجال إلى مواعيدها.
والوعد إلى تحقيقه.

(فَالْجَارِيَاتِ يُسرًا)

تعبير يفتح في النفس باب السكينة.
ليس لأن الحياة سهلة دائمًا، بل لأن تدبير الله لا يعسر عليه شيء.

قد يكون الطريق عندك مسدودًا، لكنه في علم الله جارٍ.
وقد تكون المسألة عندك معقدة، لكنها في قدر الله ميسرة.
وقد ترى أن النجاة بعيدة، بينما أسبابها تتحرك في غيب لا تراه.

الذي جعل الأجرام العظيمة تجري في أفلاكها بغير تصادم، وجعل السفن
تمخر الماء، وجعل السحاب يسير محمولًا، وجعل الريح تذر بأمره؛ لا
يعجزه أن يجري رزقك، ولا أن يفتح لك بابًا، ولا أن يبعث الموتى إذا جاء
الوعد.

ومن هنا نقرب من جواب القسم.

فالسورة لم تذكر هذه الحركات الكونية لمجرد الجمال التصويري.
إنها تهیی القلب للحقيقة الكبرى: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٢١﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

أي أن الذي ترى آثار تدبيره في الكون، هو الذي وعدك.
والذي يجري هذه العوالم، هو الذي أخبرك.
والذي لا يعجزه حمل السحاب وجريان الفلك وتقسيم الأمر، لا يعجزه أن
يوقع الدين، وأن يبعث الخلق، وأن يجازي المحسن والمسيء.

٤. والمقسمات أمراً

ثم تأتي الآية الرابعة: (فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْراً)

وهنا يبلغ المطلع ذروته.

لم نعد أمام حركة مادية فقط، بل أمام أمرٍ يُقسَّم.
أمام تدبير ينزل من عند الله.
أمام مملكة ليست سائبة، ولا متروكة، ولا مهملة.
هذه الكلمة: (أَمْراً)، تردّ الكون كله إلى سلطان الله.

فالريح ليست مستقلة.
والسحب ليست مستقلة.
والجريان ليس مستقلاً.
والأسباب كلها ليست آلهة صغيرة تتصرف من دون الله.
كلها داخلة تحت الأمر.

وهذا من أعظم ما تعالجه سورة الذاريات في نفس الإنسان:
أنها تحرره من عبودية الأسباب دون أن تلغي قيمة الأسباب.

فالإنسان يرى السبب، فينسى الأمر.

يرى التجارة، فينسى الرزاق.

يرى المطر، فينسى المنزل.

يرى الطبيب، فينسى الشافي.

يرى القوة، فينسى القاهر.

يرى الراتب، فينسى الفتاح.

يرى البشر، فينسى رب البشر.

فتأتي السورة من أولها لتعيد الأسباب إلى مكانها الصحيح:

هي تعمل، نعم.

لكنها تعمل بأمر.

وهذا هو الفرق بين عينٍ موحّدة وعينٍ غافلة.

العين الغافلة تقف عند الريح.

والعين المؤمنة ترى من أرسل الريح.

العين الغافلة تقف عند السحاب.

والعين المؤمنة ترى من حمل السحاب.

العين الغافلة تقف عند الجريان.

والعين المؤمنة ترى من يسر الجريان.

العين الغافلة تقف عند التقسيم.

والعين المؤمنة ترى من له الأمر كله.

من هنا تصبح السورة تدريجاً على النظر التوحيدي.

ليست دعوة إلى ترك الأسباب، بل إلى ألا تتحول الأسباب إلى حجاب.

كم من إنسانٍ حجبهُ الرزق عن الرازق.
وكم من إنسانٍ حجبهُ العلم عن العليم.
وكم من إنسانٍ حجبهُ النظام عن المدبّر.
وكم من إنسانٍ حجبهُ الكون عن رب الكون.

والقرآن لا يسمح للكون أن يكون حجابًا عن الله، بل يجعله طريقًا إليه.

٥. جواب القسم: الوعد الصادق

بعد هذا المطلع الكوني المتحرك، يأتي الجواب حاسمًا: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ
﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

هنا نعرف لماذا بدأ المشهد بتلك القوة.

كل هذه الحركات جاءت لتخدم حقيقة واحدة:

ما تُوعَدُونَ به صدق.

والجزاء واقع.

والقيامة ليست احتمالًا.

والدين ليس فكرةً وعظيةً لتخويف الناس.

إنه واقع قادم.

والتعبير شديد: ﴿لَصَادِقٌ﴾ ﴿لَوَاقِعٌ﴾

ليس في الآيتين تردد.

ولا مساحة للظن.

ولا لغة احتمال.

بل تأكيد بعد تأكيد.

كأن السورة تواجه رخاوة الإنسان أمام الآخرة.

فالإنسان لا ينكر دائماً بلسانه، لكنه يؤجل بقلبه.

قد يقول: نعم، الآخرة حق.

لكنه يعيش كأنها بعيدة جداً.

وقد يؤمن بالحساب في عقيدته، لكنه لا يسمح لهذا الإيمان أن يغيّر عاداته اليومية.

وقد يذكر الجنة والنار، لكنه يظل مربوطاً بالأرض، كأن الوعد لا يضغط على قراراته.

وهنا تأتي الآية: **(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)**

ليست المشكلة في صدق الوعد.

المشكلة في صدق تلقينا للوعد.

الوعد صادق، لكن هل نحن نعيش أمامه بصدق؟

الدين واقع، لكن هل وعينا له واقع في قلوبنا؟

الآخرة آتية، لكن هل دخلت في حساباتنا كما دخل الرزق، والمرض،

والمستقبل، والناس؟

إن من أعجب تناقضات الإنسان أنه يستعدّ لأشياء لا يضمن وقوعها،

ويترأخى عن شيء أقسم الله أنه واقع.

يستعدّ لاحتمال الفقر.

لاحتمال المرض.

لاحتمال تغيير السياسة.

لاحتمال الخسارة.

لاحتمال الشيخوخة.

لكنه لا يستعدّ بالقدر نفسه ليومٍ قال الله عنه: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

والدين هنا الجزاء والحساب.

أي أن الطريق لن يبقى مفتوحاً بلا نهاية.

ستقع الخاتمة.

ستتغلق مرحلة الاختبار.

سيظهر وزن العمل.

سيصير الغيب مشاهدة.

وسيعرف الإنسان أن كل ما كان يظنه مؤجلاً كان آتياً في موعده.

٦. لماذا يقسم الله؟

قد يسأل القلب: لماذا هذا القسم؟

والله غنيّ عن أن يؤكد خبره، فخبّره حقُّ بذاته.

لكن القسم ليس لحاجة الخبر إلى تقوية، بل لحاجة القلب إلى إيقاظ.

فالقُرآن يخاطب الإنسان كما هو:

كائنًا ينسى.

يتراخي.

ينخدع بالمألوف.

يتعامل مع الموت كأنه خبر الآخرين.

ومع القيامة كأنها بعيدة لا تمسّ يومه القريب.

فيأتي القسم ليكسر طبقة الاعتقاد.

القسم في القرآن ليس مجرد أسلوب لغوي، بل إيقاظٌ وجودي.

إنه يقول للإنسان: قف.

هذا الذي يمرّ عليك ليس كلامًا عابرًا.

والحقيقة التي ستلقى عليك ليست تفصيلًا صغيرًا في الحياة.

إنها أصل المصير.

وحين يقسم الله بالذاريات والحاملات والجاريات والمقسمات، فإن القلب

يُستدعى إلى محكمة الكون.

كأن هذه المخلوقات كلها شهودٌ على صدق الوعد.

وكان نظام العالم كله يقول للإنسان: الذي أحكم البداية لا يترك النهاية.

والذي دبّر الحركة لا يترك المصير.

والذي خلقك لن يدعك سدى.

وهذا المعنى شديد الصلة بإنسان العصر.

فالإنسان الحديث يظن أنه تجاوز الخرافة لأنه فهم شيئاً من قوانين المادة،

لكنه كثيرًا ما وقع في خرافةٍ أكبر: أن النظام يمكن أن يوجد بلا معنى، وأن

الدقة يمكن أن تكون بلا قصد، وأن الإنسان يمكن أن يكون بلا غاية، وأن

الموت يمكن أن يكون نهاية السؤال.

سورة الذاريات لا تدخل معه في جدل طويل.
بل تضعه أمام الكون، ثم تقول: **(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)**

أي أن هذا الكون الذي تراه ليس دليلاً على الطبيعة الصماء، بل شاهدٌ على
الوعد الصادق.

ليس النظام بديلاً عن الله.
النظام أثرٌ من آثار أمر الله.

٧. من الكون إلى الضمير

لو تأملنا مطلع السورة، وجدنا أنه لا يتحدث عن الإنسان مباشرة، ومع ذلك
فهو يضرب قلب الإنسان في العمق.

لأن الإنسان حين يرى الكون من حوله محكوماً بأمر الله، يستحي أن يكون
هو وحده خارج الطاعة.

الرياح لها وظيفة.

السحاب له وظيفة.

الجاريات لها وظيفة.

الملائكة لها وظيفة.

الأمر يجري في مساره.

فما وظيفة الإنسان؟

سيأتي الجواب في أواخر السورة: **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)**

وهنا تظهر وحدة السورة.

ليست الآية الأخيرة منفصلة عن المطلع.

فالمطلع يقول: الكون كله يتحرك بأمر.

والخاتمة تقول: وأنت كذلك مخلوقٌ لأمر.

لا تكن النشاز الوحيد في هذا الوجود المسبّح.

وهذا من أجمل أسرار السورة:

أنها تبدأ بوظائف المخلوقات، وتنتهي بوظيفة الإنسان.

الرياح تذرو.

السحب تحمل.

الجاريات تجري.

المقسمات تقسم أمراً.

والإنسان يعبد.

فإذا لم يعبد، صار أغرب مخلوقٍ في هذا النسق.

لأنه الكائن الذي أُعطي العقل ليعرف، ثم استخدم العقل لينسى.

وأُعطي القلب ليحب، ثم بدده في التعلقات الصغيرة.

وأُعطي العمر ليتهياً، ثم أنفقه في تأجيل المعنى.

٨. الوعد الذي يربّي

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ)

الوعد في القرآن ليس معلومة مستقبلية فقط.

إنه قوة تربوية حاضرة.

حين يؤمن الإنسان أن ما يُوعَد به صادق، يتغير كل شيء في داخله.

يتغير معنى الخسارة.

فليست كل خسارة خسارة إذا كانت تحفظ الآخرة.

ويتغير معنى الربح.

فليس كل ربح ربحًا إذا كان يثقل الحساب.

ويتغير معنى الصبر.

فالصبر لا يعود انتظارًا فارغًا، بل يصبح عبورًا إلى وعد صادق.

ويتغير معنى الوحدة.

فمن عمل لله في الخفاء، لم يعد وحيدًا، لأنه يعمل تحت نظر من لا يضيع عنده شيء.

ويتغير معنى الليل.

فهو ليس وقت نوم فقط، بل ممر إلى جنات وعيون.

ويتغير معنى الرزق.

فهو ليس ما تنتزعه بقلبك، بل ما قسمه الله بحكمته.

الوعد الصادق يحرر الإنسان من فوضى اللحظة.

لأن أكثر ما يفسد الإنسان أنه يعيش أسير الآن.

لذة الآن.

خوف الآن.

غضب الآن.

مكسب الآن.

تصفيق الآن.

انتقام الآن.

أما الوعد الصادق فيمدّ بصره إلى النهاية.

يجعله يسأل قبل الفعل: وماذا بعد؟

قبل الكلمة: كيف سألقاها يوم الحساب؟

قبل المال: من أين؟ وإلى أين؟

قبل الخصومة: هل أستطيع أن أقف بهذا الموقف بين يدي الله؟

قبل الشهوة: أيستحق هذا العابر أن أخسر به الأبدى؟

هكذا يربّي الوعد.

ليس بإلغاء الحياة، بل بكشف حجمها الصحيح.

الحياة ليست صغيرة لأنها دنيا، بل تصغر حين تُعاش بلا آخرة.

وتكبر حين تصير مزرعةً للوعد الصادق.

٩. الدين الواقع

ثم تأتي الآية الثانية من جواب القسم: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

والدين هنا الجزاء.

وقوعه يعني أنه ليس مجرد معنى أخلاقي.

ليس فكرةً تعزيةً للمظلومين فقط.

ليس حلمًا روحيًا.

إنه وقوع.

حدث.

حقيقة.

حساب.

وهذه الكلمة تردّ على كل محاولات الإنسان للهروب من النهاية.

فالإنسان يهرب من الموت بالانشغال.

ويهرب من الحساب بالتبرير.

ويهرب من الذنب بالمقارنة مع من هو أسوأ منه.

ويهرب من الخوف بالضحك.

ويهرب من السؤال بتأجيل التوبة.

لكن الآية تضع أمامه سدًا لا يلتف حوله: (لَوَاقِعٌ)

ما دامت واقعة، فليست القضية هل ستأتي، بل كيف سنكون حين تأتي.

وهذا وحده يكفي لولادة الجدية في القلب.

الجدية ليست عبوسًا.

وليست قسوة.

وليست انسحابًا من جمال الحياة.

الجدية أن تعرف أن العمر ليس لعبة.

أن الكلمة محسوبة.

وأن الظلم لا يضيع.

وأن الدمعة لا تنسى.

وأن الصبر لا يذهب.

وأن الخلوة لا تضيع.

وأن السهر المجهول مكتوب.

وأن الله لا يخلق الإنسان ثم يتركه بلا لقاء.

في ضوء هذه الآية، يصبح كل شيء في الحياة متصلاً بالآخرة.

حتى التفاصيل الصغيرة.

نظرة.

كلمة.

نية.

صدقة.

حقد.

عفو.

خيانة.

قيام ركعتين.

إطعام مسكين.

خوف كتمته.

شهوة قاومتها.

دمعة لم يعلم بها أحد.

كل هذا سيقع في الميزان؛ لأن الدين واقع.

١٠. حين يفقد الإنسان معنى النهاية

أخطر ما يصيب الإنسان ليس أن يخطئ.
فالخطأ من طبيعة البشر.
الخطر أن يعيش بلا إحساس بالنهاية.

حين تغيب النهاية، تتضخم اللحظة.
وحين تتضخم اللحظة، يصير الإنسان عبدًا لما يضغط عليه الآن.
إن جاع، نسي المبدأ.
وإن خاف، باع الحق.
وإن غضب، ظلم.
وإن اشتهى، استباح.
وإن مُدح، انتفخ.
وإن مُنع، سخط.
وإن قدر، بطش.

لذلك تأتي الآخرة في القرآن لا لتخيف الإنسان فقط، بل لتعيد له توازنه.

من لا يؤمن بالحساب، لا يرى للظلم خاتمة.
ومن لا يؤمن بالجزاء، لا يفهم لماذا يصبر المظلوم.
ومن لا يؤمن بالجنة، لا يدرك قيمة الحرمان في سبيل الله.
ومن لا يؤمن بالنار، لا يعرف خطورة أن يتحول الإنسان إلى وحشٍ أنيق.
ومن لا يؤمن بقاء الله، قد يظن أن الحياة مجرد سباقٍ بين شهواتٍ
ومصالح.

سورة الذاريات تبدأ من هنا.

من الوعد.

من الدين الواقع.

من النهاية التي تعيد تفسير البداية.

كأنها تقول: لا يمكن أن تفهم حياتك ما لم تعرف إلى أين تنتهي.

١١. بناء اليقين من الخارج إلى الداخل

مطلع السورة يبني اليقين بطريقة عجيبة.

لا يبدأ من النفس، بل من الكون.

ثم يأخذ هذا اليقين من الخارج إلى الداخل.

انظر إلى الريح.

انظر إلى السحاب.

انظر إلى الجريان.

انظر إلى تقسيم الأمر.

ثم اسمع: الوعد صادق.

وهذا منهج قرآني رفيع.

لأن القلب أحياناً يكون منغلقاً على نفسه، محاصراً بوساوسه ومخاوفه.

فإذا قلت له مباشرة: آمن، ربما جادلك.

وإذا قلت له: تيقن، ربما قاومك.

لكن القرآن يخرجك إلى المشهد الأوسع.

يقول له: لا تبدأ من ضيقك، ابدأ من اتساع الخلق.

لا تبدأ من قلقك، ابدأ من انتظام الكون.

لا تبدأ من عجزك، ابدأ من قدرة الله.

وهذا علاج عظيم للإنسان حين تضيق عليه نفسه.

كلما ضاق بك الداخل، فاخرج بقلبك إلى آيات الله.

انظر إلى السماء لا هروباً من الواقع، بل عودةً إلى الحقيقة.

انظر إلى الريح لا كظاهرةٍ عابرة، بل كرسالةٍ في الحركة والتدبير.

انظر إلى السحاب لا كماءٍ فقط، بل كرزقٍ محمول بأمر الله.

انظر إلى الجريان اليسير، لتتعلم أن ما استعصى عليك لا يستعصي على الله.

الكون في القرآن ليس متحفاً للجمال الصامت.

إنه كتابٌ مفتوح لليقين.

١٢. من يقين الوعد إلى أخلاق الحياة

إذا استقر في القلب أن الوعد صادق والدين واقع، لم يبقَ الإيمان فكرةً محايدة.

سيتحول إلى أخلاق.

فالذي يصدق الوعد لا يغشّ كما يغشّ الغافل.

لأنه يعلم أن الدين واقع.

ولا يظلم كما يظلم من يظن أن القوة نهاية المطاف.

لأنه يعلم أن الدين واقع.

ولا يحتقر العمل الخفي.

لأنه يعلم أن الوعد صادق.

ولا يزدري دمة التائب.

لأنه يعلم أن الله لا يضيع الصادقين.

ولا يغتر ببطء العقوبة.

لأنه يرى في مصارع الأمم القادمة في السورة دليلاً على أن الإمهال ليس إهمالاً.

ولا يعبد الرزق.

لأن السورة ستقول له بعد قليل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

ولا ينام الليل كله كأن القلب لا موعد له.

لأن السورة ستريه أهل الجنة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾

إذن مطلع السورة ليس مقدمة نظرية.

إنه أصلٌ تتفرع عنه بقية السورة.

اليقين بالوعد سيقود إلى قيام الليل.

واليقين بالرزق سيقود إلى التحرر من الذل.

واليقين بالمصير سيقود إلى قراءة التاريخ.

واليقين بالغاية سيقود إلى العبادة.

كل السورة تنمو من هذه البذرة الأولى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الدِّينَ

لَوَاقِعٌ﴾

١٣. الرياح التي تسبق المطر والقيامة

هناك ملمح آخر في المطلع.

الرياح في حياة الناس كثيرًا ما تسبق المطر.

وتسبق التحول.

وتسبق تبدل الجو.

وقد تكون بشارة، وقد تكون عذابًا.

والقرآن يستعمل الريح والرياح في مواضع كثيرة بين الرحمة والعقوبة.

وفي سورة الذاريات، ستعود صورة الريح لاحقًا بصورةٍ مرعبة: ﴿وَفِي عَادٍ

إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾

فالمطلع يبدأ بالذاريات، ثم في جسد السورة تأتي الريح العقيم.

كأن السورة تقول: هذه الريح التي تجري بأمر الله قد تحمل رحمةً، وقد

تحمل نهاية.

ليست الريح مستقلة الطبع.

إنها مأمورة.

وهذا يزيد معنى المطلع عمقًا.

فالكون الذي تراه مألوفًا قد يكون طريق رزق، وقد يكون طريق حساب.

الماء يحيي قومًا، وقد يغرق قوم نوح.

الرياح تحمل السحاب، وقد تستأصل عاذًا.

الأرض تُثبت، وقد تخسف.

النار تحرق، وقد تكون بردًا وسلامًا على إبراهيم.

ليست الأشياء بقواها الذاتية وحدها.
إنها بأمر الله.

ومن لم يفهم هذا، ظلّ يتعامل مع الكون بسطحية.
يرى المادة، ولا يرى الأمر.
يرى الظاهرة، ولا يرى الحكمة.
يرى السبب، ولا يرى المسبّب.

وسورة الذاريات تريد أن تنقل الإنسان من قراءة الظواهر إلى قراءة الأمر
الإلهي في الظواهر.

١٤. أثر المطلع في القلب

حين يقرأ المؤمن هذا المطلع قراءةً حيّة، يحدث في قلبه شيء من الترتيب.
أولاً: يتواضع.

لأنه يرى نفسه داخل كونٍ هائل لا يملك مفاتيحه.

ثانياً: يطمئن.

لأن هذا الكون ليس فوضى، بل يجري بأمر الله.

ثالثاً: يستيقن.

لأن الذي يدبّر هذا كله، إذا وعد، صدق وعده.

رابعاً: يستعد.

لأن الدين واقع.

خامساً: يتحرر.

لأنه لا يعود عبداً لما يراه فقط.

وهذا هو الإعجاز التربوي في الآيات القليلة.

أربع آيات في الكون، وآيتان في الوعد، لكنها تكفي لتغيير مركز النظر.

إنها لا تضيف إلى الإنسان معلومةً فحسب.

بل تنقله من عالم نفسي إلى عالم نفسي آخر.

من عالم الظن إلى عالم اليقين.

من عالم السطح إلى عالم الأمر.

من عالم الغفلة إلى عالم الاستعداد.

١٥. خلاصة الفصل

مطلع سورة الذاريات ليس افتتاحاً زخرفياً، بل تأسيس عميق لرؤية كاملة.

(وَالذَّارِيَّاتِ ذُرُوءًا)

تعلمك أن اللامرئي قد يكون شديد الأثر.

(فَالْحَامِلَاتِ وُقُورًا)

تعلمك أن وراء الحركة حملاً، ووراء الاضطراب تدبيراً.

(فَالْجَارِيَّاتِ يُسْرًا)

تعلمك أن ما يعسر عليك يجري في ملك الله ببسر.

(فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا)

تعلمك أن الأسباب كلها تحت الأمر، وليست بدائل عن الله.

ثم يأتي الجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

وهنا يقف القلب أمام الحقيقة التي لا مفر منها:

الوعد صادق.

والجزاء واقع.

والحياة ليست طريقاً بلا نهاية.

والإنسان ليس كائنًا متروكًا.

والكون الذي يتحرك بأمر الله شاهدٌ على أن المصير أيضًا واقعٌ بأمر الله.

هذه هي الرياح الأولى في السورة.

ليست رياحًا في الجو فقط.

إنها رياحٌ تهبُّ على الغفلة.

تذرو أوهام الإنسان.

تحمل قلبه إلى اليقين.

تجري به نحو الآخرة.

وتقسم في داخله أمرًا جديدًا:

أن يستعد.

أن يوقن.

أن لا ينام عن وعد الله.

الفصل الثاني

حين يصير الغيب أوثق من المشاهد

قراءة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

ليست مشكلة الإنسان دائماً أنه لا يعرف الحقيقة.
أحياناً يعرفها، لكنه لا يسمح لها أن تحتل مكانها الصحيح في قلبه.

يعرف أن الموت قادم.

ويعرف أن الدنيا زائلة.

ويعرف أن الظلم لا يدوم.

ويعرف أن الله لا يخلق عباده عبثاً.

ويعرف أن الآخرة حق.

ومع ذلك يعيش كأن ما يعرفه بعيد، وكأن ما يراه قريب هو الحقيقة الوحيدة
التي تستحق الحساب.

هذه هي الفجوة التي تعالجها سورة الذاريات في أولها:

الفجوة بين الإقرار واليقين.

بين أن تقول: الآخرة حق.

وبين أن تتحرك في الحياة كأن الآخرة تنظر إليك.

ولهذا جاءت الآيتان بعد القسم الكوني مباشرة: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ

وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

كأن السورة لا تريد فقط أن تثبت الوعد، بل تريد أن تنزع عنه غبار التأجيل.

تريد أن تجعله حاضرًا في القلب، لا مؤجلًا في الذهن.
لأن الوعد إذا بقي فكرةً بعيدة، لم يربّ.
وإذا صار يقينًا حاضرًا، غير الإنسان من جذره.

١. صدق الوعد لا ينتظر تصديقنا

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ)

الآية لا تقول: إنكم ستكتشفون يومًا أن ما توعدون صادق.
بل تقول الآن: لَصَادِقٌ.

صدق الوعد ثابت قبل أن نصدقه.
وحقيقة الآخرة قائمة قبل أن نراها.
ووقوع الحساب ليس محتاجًا إلى استعدادنا النفسي له.
وهذا معنى شديد الهيبة.

فالإنسان كثيرًا ما يتعامل مع الحقائق الكبرى كأنها تنتظر مزاجه.
إن آمن بها صارت ثقيلة، وإن غفل عنها خفت.
إن تذكر الموت صار الموت قريبًا، وإن انشغل عنه صار بعيدًا.
إن خاف الحساب صار الحساب جادًا، وإن غطاه بالضحك صار كأنه غير موجود.

لكن القرآن يردّه إلى الحقيقة:

الوعد صادق، سواء ارتجف قلبك أو لم يرتجف.
والدين واقع، سواء هيات نفسك أو بعثرتها في الغفلة.
والآخرة لا تقترب لأنك تذكرتها، ولا تبتعد لأنك نسيته.

النسيان لا يغيّر المصير.

إنما يغيّر استعدادك له.

وهذا هو الفرق بين الغافل والمؤمن.

الغافل يظن أن ما أخرجه من وعيه خرج من الواقع.
أما المؤمن فيعلم أن الحقائق لا تموت حين لا تفكر فيها.

كم من موعدٍ في الدنيا اقترب ونحن منشغلون عنه.
وكم من خطرٍ داهم إنساناً كان قبل لحظةٍ يضحك.
وكم من جنازةٍ خرجت من بيتٍ كان أهله يخططون للغد.

فكيف بالوعد الذي أقسم الله عليه؟

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ)

إنها آيةٌ تمسح الغشاوة عن الزمن.

تقول لك: المستقبل الأخرى ليس احتمالاً، بل وعد.
وما كان من وعد الله، فهو أوثق من حاضر عينيك.

٢. الوعد والغفلة

الغفلة ليست جهلاً مجرداً.

الغفلة أن تتحول الحقائق الكبرى إلى معلومات باردة.

قد يعرف الإنسان آيات كثيرة عن الآخرة، لكنه لا يخاف.

وقد يسمع عن الموت كل يوم، لكنه لا يتغير.

وقد يقرأ عن الحساب، ثم ينام على مظلمة، أو يمضي في شهوة، أو يظن أن التوبة متسع لا يضيق.

هنا تكون المعرفة قد فقدت نارها.

وسورة الذاريات جاءت لتعيد النار إلى المعرفة.

لا نار القسوة، بل نار الإيقاظ.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ)

هذه الآية تريد من القلب أن يتعامل مع وعد الله كما يتعامل مع أصدق الحقائق، بل أشد.

فأنت قد ترتب حياتك لأن راتبك سينزل في يوم معين.

وقد تغير سفرك لأن تقريراً طيباً حذرَكَ.

وقد تؤجل مشروعاً لأن خبراً اقتصادياً أقلقَكَ.

وقد تستعد لضيفٍ لأنك صدّقت أنه قادم.

فلماذا لا يصنع وعد الله فيك ما تصنعه أخبار الناس؟

هذه ليست مقارنةً عابرة.

إنها فضيحة داخلية.

لأن الإنسان أحياناً يمنح يقينه للأضعف، ويمنح ظنه للأصدق.
يطمئن إلى وعد مخلوقٍ قد يعجز أو يخلف، ثم يتردد أمام وعد الله.
يرتب دنياه على توقعاتٍ لا يملكها أحد، ثم لا يرتب قلبه على حقيقةٍ أقسم
عليها رب العالمين.

الخلل إذن ليس في الدليل.

الخلل في القلب الذي ضعفت قابليته لليقين.

٣. حين يصبح الغيب أرسخ من الحس

الإيمان لا يعني أن نلغي الحس.

ولا يعني أن نهرب من الواقع.

ولكنه يعني أن لا نجعل الحس نهاية الحقيقة.

فالذي نراه ليس كل الموجود.

وما يغيب عنا ليس أقل حقيقةً مما يحضر أمامنا.

بل قد يكون الغيب أرسخ من المشاهد؛ لأن المشاهد يتغير، أما خبر الله فلا
يتغير.

أنت ترى الجسد حياً اليوم، ثم تراه غداً ساكناً.

ترى القوي عالياً، ثم تراه مكسوراً.

ترى المال كثيراً، ثم يذهب.

ترى الشباب ممتدداً، ثم يذبل.

ترى المدينة عامرة، ثم تصير أثرًا.
ترى الظالم مسيطرًا، ثم ينهار سلطانه.
كل ما تراه بعينك محكوم بالتغير.

أما وعد الله، فلا يشيخ.

لا يتعب.

لا يضعف.

لا يطرأ عليه احتمال.

لا تفاجئه قوة.

لا يمنعه مانع.

لا يراجعه الزمن.

لهذا يصير الغيب في ميزان الإيمان أوثق من المشاهد.
لا لأننا نحتقر الحس، بل لأننا نعرف من أخبر عن الغيب.

المسألة ليست: هل رأيت الآخرة؟

بل: من الذي أخبرك عنها؟

فإذا كان المخبر هو الله، صار الغيب يقينًا لا يحتاج إلى أن يتحول إلى مشهد
حتى يصبح حقًا.

بل المشهد يوم القيامة لن يصنع الحقيقة، إنما سيكشفها لمن كان محجوبًا
عنها.

ولذلك يمدح القرآن المتقين في أول البقرة بأنهم: **(يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ)**

لأنهم لم ينتظروا انهيار الحجاب ليصدقوا.
لم ينتظروا أن تصير الجنة والنار أمام العين حتى يتأدبوا مع المصير.
لم ينتظروا أن يروا الملائكة حتى يخافوا من الحساب.
لقد تلقوا خبر الله بما يليق بالله: بالتصديق والتسليم والعمل.

٤. الدين الواقع

ثم تأتي الآية التالية: (وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

كلمة (وَاقِعٌ) من أشد الكلمات صرامة.
إنها تنهي المجادلة النفسية.
تغلق باب التوهم.
تنقل القضية من دائرة النقاش إلى دائرة الحتم.

واقع.

ليس شيئاً رمزياً.
ولا معنى معنوياً فقط.
ولا صورة أخلاقية لتربية الناس.
بل يومٌ يقع.
وحسابٌ يقع.
وجزاءٌ يقع.
وكشفٌ يقع.
ووقوفٌ يقع.

الإنسان بارع في تحويل الحقائق الثقيلة إلى أفكار لطيفة.
يحاول أن يجعل القيامة مفهوماً، والموت خاطرة، والحساب موعظة،
والجنة رمزاً للسعادة، والنار رمزاً للألم.
لكن القرآن يردّ هذه الذهنية إلى الصدمة الأصلية: (لَوَاقِعٌ)

أي سيحدث.

سيأتي.

سيكون.

ستقف.

ستسأل.

سترى.

ستعلم.

وهذا اللفظ وحده كافٍ لأن يسحب الإنسان من لعبته الكبرى: لعبة التأجيل.

هـ. التأجيل أخطر من الإنكار

ليس كل الغافلين منكربين.

كثيرٌ منهم مؤجلون.

لا يقول أحدهم: لا آخرة.

لكنه يقول بسلوكه: ليست الآن.

لا يقول: لا توبة.

لكنه يقول: بعد حين.

لا يقول: لا حساب.

لكنه يقول: ما زال في العمر متسع.

لا يقول: لا صلاة.

لكنه يقول: سأنتظم لاحقاً.

لا يقول: لا ظلم.

لكنه يقول: هذه مرة.

لا يقول: لا حق.

لكنه يقول: الظروف لا تسمح الآن.

وهكذا لا يهدم الإيمان بإنكاره، بل يفرغه بالتأجيل.

التأجيل هو الصورة الناعمة للغفلة.

لا يصطدم بالحقيقة، لكنه يبعتها.

لا يكذب الوعد، لكنه لا يستعد له.

لا ينفي الدين، لكنه يضعه خارج جدول اليوم.

لذلك جاءت سورة الذاريات بلغة الوقوع.

لتقول للمؤجل: ما تؤجله قادم.

وما تهرب منه يقترب.

وما تتعامل معه كأنه بعيد، يمشي إليك وأنت لا تشعر.

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

الآية لا تسأل: هل أنت مستعد؟

بل تخبرك: سيقع.

ثم تترك السؤال في داخلك ينزف:
فماذا أعددت؟

٦. لماذا يفسو القرآن أحياناً على الغفلة؟

قد يبدو الخطاب القرآني في مشاهد القيامة شديداً.
وفي الحقيقة هو شديد لأنه رحيم.

فالرحمة ليست دائماً أن تربت على كتف النائم.
أحياناً الرحمة أن توقظه قبل الحريق.

والقرآن حين يذكر الوقوع، والحساب، والنار، ومصارع المكذبين، لا يفعل
ذلك ليكسر الإنسان، بل لينقذه من الانكسار النهائي.
إنه يخيفك الآن لكي لا تفرع هناك.
يزعجك في الدنيا لكي لا تصرخ في الآخرة.
ينزع عنك الطمأنينة الكاذبة لكي يمنحك الأمن الصادق.

ومن لا يفهم هذا، قد يظن أن آيات الوعيد قسوة.
ولكن أيهما أقسى:

أن يُترك الإنسان يضحك حتى يسقط؟
أم أن يُنادى عليه قبل الهاوية؟

سورة الذاريات من هذا الباب.

إنها ليست سورةً غاضبة على الإنسان لمجرد ضعفه، بل سورة رحيمة به
من غفلته.

لأن الضعف إذا صحبه انكسار عاد إلى الله.
أما الغفلة إذا صحبها اطمئنان كاذب، فقد تصير موتًا بطيئًا للقلب.

٧. الوعد ليس تهديدًا فقط

مع أن الآيتين تأتيان في سياق تقرير القيامة، إلا أن الوعد في القرآن ليس وعيدًا فقط.

إنه يشمل ما وعد الله به عباده من بعثٍ وحسابٍ وجزاء، ومن جنةٍ للمحسنين ونارٍ للمكذابين.

وهذا مهم جدًا.

لأن المؤمن لا يعيش مع الوعد بالخوف وحده، بل بالخوف والرجاء.
الوعد الصادق يعني أن دمعتك محفوظة.

وأن سجودك الخفي محفوظ.

وأن صدقتك التي نسيتها محفوظة.

وأن صبرك الذي لم يصفق له أحد محفوظ.

وأن قيامك في آخر الليل ليس حركةً ضائعة في الظلام.

وأن استغفارك في السحر لا يتبدد في الهواء.

وأن الله لا ينسى الخير الصغير الذي فعله قلبٌ مخلص.

لهذا ستأتي بعد قليل آيات المحسنين: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠١﴾
أَخَذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

كأن السورة تقول: الدين واقع، نعم.

ولكن وقوعه ليس رعبًا للكل.

إنه رعبٌ للغافلين، وبشارةٌ للمحسنين.
هو يوم انكشاف، والانكشاف يخيف من أخفى الخيانة، ويريح من أخفى الإخلاص.

وهنا يظهر عدل الله في أجمل صورته.

في الدنيا قد يختلط الناس.
قد يعلو الخادع.
وقد يختفي الصادق.
وقد يضيع صوت المظلوم.
وقد يصفق الناس للباطل لأنه يملك منصةً أعلى.
وقد يموت محسنٌ لا يعرفه أحد.
لكن الدين واقع؛ أي أن هذا الاختلاط لن يبقى.
ستظهر الحقائق في موضعٍ لا تعمل فيه الدعاية، ولا تنفع فيه الزخارف،
ولا يستطيع أحدٌ أن يسرق مقام أحد.

الدين واقع؛ أي أن الصدق لن يبقى مجهولاً إلى الأبد.
والإحسان لن يبقى تحت التراب.
والظلم لن ينجو بمهارته.
والنفاق لن يحتفظ بقناعه.

٨. اليقين الذي يطهر العمل

حين يؤمن الإنسان أن الدين واقع، يبدأ في تنظيف أعماله من الداخل.

ليس فقط: ماذا فعلت؟

بل: لماذا فعلت؟

ليس فقط: ماذا قلت؟

بل: ماذا أردت بكلامي؟

ليس فقط: هل أعطيت؟

بل: هل طلبت وجه الله أم وجه الناس؟

ليس فقط: هل صبرت؟

بل: هل صبرت لله أم عجزاً عن الانتقام؟

ليس فقط: هل كتبت؟

بل: هل أردت هداية الناس أم رفعة الاسم؟

الإيمان بالدين الواقع يفتح محكمةً داخليةً في الضمير.

لا تجعل الإنسان موسوساً مريضاً، بل صادقاً مع نفسه.

لأن يوم الدين ليس يوم الصور الخارجية.

إنه يوم السرائر.

يوم يظهر ما كان تحت اللغة.

وما كان تحت الموقف.

وما كان تحت العمل.

وما كان تحت الصمت.

ولذلك كان السلف يخافون من النية أكثر مما يخافون من صورة العمل.

لأن العمل قد يراه الناس صالحاً، لكن الدين الواقع سيكشف قلبه.

وهنا ينبغي أن ننتبه:

سورة الذاريات لا تربي الرعب المرضي، بل تربي الصفاء.
تريد من الإنسان أن يكون عمله نظيفاً؛ لأن وعد الله صادق.
وتريد منه أن لا يكتفي بإعجاب الناس؛ لأن الدين واقع.
وتريد منه أن لا يخدع نفسه؛ لأن الحساب أعمق من المظاهر.

٩. أثر الوعد في مقاومة الشهوة

الشهوة لا تنتصر دائماً لقوتها.
كثيراً ما تنتصر لأن الوعد غاب لحظة.
حين يضعف حضور الآخرة، تكبر الشهوة.
وحين يحضر الوعد، تصغر.
الإنسان قد يعلم أن المعصية خطأ، لكن المعرفة وحدها لا تكفي دائماً.
إنه يحتاج أن يرى نهايتها.
أن يسمع داخل قلبه: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾
هذه الكلمة إذا حضرت في لحظة الإغراء، كسرت سحر العابر.
فالشهوة تعيش على تضخيم اللحظة ونسيان العاقبة.
تقول للإنسان: الآن فقط.
والآية تقول: هناك وقوع.
الشهوة تقول: لن يراك أحد.
والآية تقول: سيظهر كل شيء.
الشهوة تقول: متعة قصيرة.

والآية تقول: حساب طويل.

الشهوة تقول: لا تفكر.

والآية تقول: استيقظ.

ليس المطلوب أن يكره الإنسان الحياة، بل أن لا يخسر الحياة الكبرى لأجل ومضة صغيرة.

كم من معصية كانت ستنكسر لو حضر اليقين دقيقة واحدة.
وكم من كلمة ظالمة كانت ستسقط من اللسان لو تذكر صاحبها أنها ستعود إليه يوم الدين.

وكم من خيانة كانت ستذبل لو سمع القلب بصدق: (إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ)

١٠. أثر الوعد في مقاومة الخوف

وكما يردع الوعد الشهوة، فإنه يداوي الخوف.

فالخائف من الناس يحتاج إلى وعد الله كما يحتاج المذنب إلى وعيده.
حين يعرف أن الدين واقع، لا يعود ميزان القوة الأرضية هو الميزان النهائي.

قد يظلمك أحدهم لأنه أقوى.

وقد يسلبك حقاك لأنه أقدر.

وقد يشوهك لأنه أملك للصوت.

وقد يسجنك لأن يده أطول.

وقد يكذب عليك لأن الناس أسرع إلى سماع الضجيج.

لكن الدين واقع.

وهذه ليست جملة تسليية فقط.

إنها حقيقة كونية أخلاقية.

لو لم يكن الدين واقعًا، لكان الظلم في كثير من الحالات أقوى من العدل.

ولكانت دموع الضعفاء مجرد ماءٍ مالِح.

ولكانت صرخات المقهورين تتبدد في الهواء.

ولكان التاريخ مقبرةً كبيرةً للحقوق الضائعة.

لكن الله يقول: **(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)**

أي أن هناك يومًا لا يملك فيه الظالم شرطته، ولا جمهوره، ولا ماله، ولا

لغته الماكرة، ولا قدرته على صناعة الرواية.

هناك تقف الحقيقة عارية.

وهذا اليقين لا يجعل المظلوم سلبياً، بل يحميه من الانهيار، ومن أن يتحول

هو أيضاً إلى ظالم.

من عرف أن الحساب واقع، قاوم الظلم دون أن يعبد الانتقام.

وطلب حقه دون أن يفقد روحه.

وصبر دون أن يذوب.

وعفا حين يكون العفو رفعة، لا حين يكون العفو تمكينًا للباطل.

١١. الوعد وتربية الزمن

الإيمان بالوعد الصادق يعيد ترتيب علاقة الإنسان بالزمن.

الغافل يعيش في زمنٍ مسطح:

ماضٍ يندم عليه.

وحاضرٍ يلهث فيه.

ومستقبلٍ دنيوي يقلق منه.

أما المؤمن فيعيش في زمنٍ ممتد إلى الآخرة.

الماضي عنده باب توبة.

والحاضر مزرعة.

والمستقبل الأخروي لقاء.

لذلك لا ينهار إذا تأخر الجزاء.

لأنه لا يحصر الجزاء في الدنيا.

ولا يجنّ إذا رأى الباطل منتفخاً.

لأنه يعرف أن الانتفاخ ليس بقاء.

ولا يضيع إذا فاته بعض حظ الدنيا.

لأنه يعرف أن العطاء الحقيقي ليس كله هنا.

(إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ)

هذه الآية تمدّ الزمن.

تجعل الإنسان لا يحاكم حياته من فصلٍ واحد.

لا يفهم القصة من مشهدٍ مبتور.

لا يقول عند أول ألم: انتهى كل شيء.

ولا يقول عند أول انتصار للباطل: ضاع الحق.

ولا يقول عند أول حرمان: نُسييت.

الوعد الصادق يعني أن القصة لم تنته.
وأن الله لا يغفل عن السطر الخفي.
وأن النهاية ليست بيد المشهد العابر.

١٢. من صدق الوعد إلى صدق الإنسان

حين يوقن الإنسان بصدق وعد الله، يستحي أن يكون هو كاذبًا.
فالقرآن لا يريد منك أن تصدق الوعد فقط، بل أن تصير أنت صادقًا في
ضوء هذا الوعد.
صادقًا في إيمانك.
صادقًا في توبتك.
صادقًا في عملك.
صادقًا في خصومتك.
صادقًا في محبتك.
صادقًا في خوفك من الله.
صادقًا حين لا يراك أحد.

لذلك لا غرابة أن تأتي آيات المحسنين بعد ذلك.
فالصدق بالوعد ينبغي أن يثمر إحسانًا.
وإلا كان مجرد تصديق ذهني لم ينزل إلى الجوارح.
إن أخطر أنواع التدين أن يظل الإنسان مؤمنًا بالنهايات الكبرى، لكنه لا
يسمح لها أن تهذب بداياته الصغيرة.
يؤمن بالآخرة، لكن لسانه فاجر.

يؤمن بالحساب، لكن يظلم في بيته.
يؤمن بالجنة، لكن قلبه قاسٍ على الضعفاء.
يؤمن بالنار، لكنه يبيع ضميره بثمنٍ قريب.
يؤمن بوعده الله، لكنه لا يثق بالله في رزقه.
هذا الإيمان يحتاج أن ينتقل من خانة المعلومة إلى مقام التربية.
وسورة الذاريات جاءت لهذا الانتقال.

١٣. الغيب الذي يصنع الحضارة

قد يظن بعض الناس أن الإيمان بالغيب يصرف الإنسان عن عمارة الحياة.
والحق أن الغيب حين يكون وحيًا صادقًا، فإنه يطهر عمارة الحياة من
العبث والوحشية.

من يؤمن أن الدين واقع لا يبني حضارةً بلا أخلاق.
ولا اقتصادًا بلا رحمة.
ولا سياسةً بلا حساب.
ولا علمًا بلا تواضع.
ولا قوةً بلا عدل.
ولا حريةً بلا عبودية لله.

لأن الآخرة ليست خصمًا للدنيا، بل ميزانها.

الدنيا حين تنفصل عن الآخرة تتحول إلى سوقٍ كبير:
كل شيء قابل للبيع.

القيم.

الأجساد.

الكلمات.

المواقف.

الدماء.

الأوطان.

حتى الإنسان نفسه.

أما حين تحضر الآخرة، فإنها تضع حدًا لهذا الانفلات.

تقول للسياسي: ستحاسب.

وللتاجر: ستحاسب.

وللعالم: ستحاسب.

وللكاتب: ستحاسب.

وللزوج: ستحاسب.

وللقاضي: ستحاسب.

وللمظلوم أيضًا: لا تجعل ألك يبيع لك أن تظلم.

(وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ)

هذه الآية ليست للزوايا التعبدية وحدها.

إنها قانونٌ أخلاقي يحكم الوجود الإنساني كله.

١٤. حين يصبح الوعد رفيقاً يومياً

المؤمن لا يتذكر الوعد في المقابر فقط.

ولا في رمضان فقط.

ولا عند المصائب فقط.

الوعد ينبغي أن يكون رفيقاً يومياً هادئاً، لا فزعاً موسمياً.

يرافقك وأنت تكتب.

وأنت تبيع.

وأنت تختلف.

وأنت تغضب.

وأنت تنتظر.

وأنت تختار.

وأنت تصمت.

وأنت تقرر أن تنهض في آخر الليل أو تبقى في دفء الفراش.

ليس المطلوب أن يعيش الإنسان متوترًا من الآخرة.

بل أن يعيش منضبطاً بها.

هناك فرق بين القلق الإيماني واليقظة الإيمانية.

القلق يشلّ.

أما اليقظة فتطهر.

القلق يجعلك تدور حول نفسك.

أما اليقظة فتدفعك إلى الله.

القلق يقول: هلكت.

أما اليقظة فتقول: تب، أصلح، قم، استغفر، لا تؤجل.

وسورة الذاريات تريد هذه اليقظة.

ولذلك ستأتي فيها الآية الجامعة: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

لا تقول: فارتعبوا فقط.

ولا تقول: فاختبئوا.

بل: فرّوا.

أي تحركوا.

عودوا.

اخرجوا من مناطق الهلاك إلى ربكم.

١٥. خلاصة الفصل

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾

تعني أن وعد الله ليس محتاجاً إلى أن تصدقه مشاعرنا حتى يكون حقاً.
هو صدقٌ ثابت، ونحن المحتاجون إلى أن نصدق معه.

﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

تعني أن الحساب ليس فكرةً بعيدة، بل حقيقة قادمة، وأن نهاية الطريق
ليست في يد الغفلة.

بهاتين الآيتين تبني سورة الذاريات أول أعمدة اليقين:

أن الغيب الذي أخبر الله به أوثق من المشهد الذي تراه العين.

لأن العين ترى المتغير، أما الوحي فيخبر عن الحق الذي لا يتغير.

ومن هنا يبدأ التحول الحقيقي في الإنسان.

حين يؤمن أن الوعد صادق، لا يستهين بالطاعة الخفية.

وحين يؤمن أن الدين واقع، لا يستهين بالذنب الخفي.

وحين يؤمن أن النهاية آتية، لا يجعل اللحظة العابرة سيدة قراره.

وحين يؤمن أن الله لا يخلف وعده، لا يخاف ضياع الخير عنده.

هذه الآيات لا تريد فقط أن تقول لنا: الآخرة حق.

بل تريد أن تجعل هذا الحق حاضرًا في مفاصل حياتنا.

في خوفنا.

في شهواتنا.

في ظلمنا وعدلنا.

في ليلنا ونهارنا.

في رزقنا وقلقنا.

في سرائرنا التي لا يعلمها إلا الله.

فإذا صدق القلب مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۖ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

خرج من عبودية المرئي الضيق، ودخل في سعة اليقين.

صار الغيب عنده ليس منطقة غامضة في الوعي، بل نورًا يفسر الحاضر،

ويهذب السلوك، ويفتح الطريق إلى الله.

الفصل الثالث

الإنسان بين الخرص واليقين

قراءة في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ
﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾

بعد أن أقسمت السورة بالكون المتحرك، وبعد أن قررت الحقيقة الكبرى:
﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ ۖ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

تنتقل مباشرة إلى صنفٍ من الناس لا يقف أمام هذا الوعد موقف الباحث المتواضع، ولا موقف الخائف الذي يريد النجاة، بل موقف العابث الذي يملأ فراغ قلبه بالتخمين والسخرية: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۖ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾

وهنا يتحول السياق من بناء اليقين إلى كشف مرضٍ مضاد لليقين.

إنه مرض الخرص.

والخرص ليس مجرد خطأ في الرأي.

إنه أن يتكلم الإنسان في الحقائق الكبرى بلا علم، وأن يملأ فراغ الدليل بالظن، وفراغ اليقين بالاستهزاء، وفراغ القلب بالغفلة.

كأن السورة تقول: إذا كان الوعد صادقاً والدين واقعاً، فإن أخطر ما يفعله الإنسان أن يتعامل مع هذا الوعد بمنطق التخمين.

أن يقابل خبر الله بعقلٍ عابث.
وأن يقابل الآخرة بسؤالٍ ساخر.
وأن يجعل الغيب ميداناً للثرثرة لا مقاماً للتسليم والبصيرة.

١. (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

هذه البداية شديدة. (قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

ليست مجرد وصف.
إنها دعاءٌ عليهم، أو حكمٌ بهلاك طريقهم، أو إعلان أن هذا النمط من التفكير
يحمل قتله في داخله.

والخرّاص هو الذي يقدر بالظن، ويتكلم بغير تثبيت.
وفي مسائل الدنيا قد يكون الخرص خطأً معرفياً محدوداً، أما في مسائل
المصير فهو خرابٌ وجودي.
لأن الخطأ هنا لا يتعلق بتقدير تجارة، ولا بتحليل حدث، ولا بترجيح
احتمال سياسي؛ بل يتعلق بالله، والآخرة، والوحي، والغاية من الخلق.
حين يخرص الإنسان في هذه المسائل، فإنه لا يخطئ في معلومة فحسب.
إنه يعبث بالبوصلّة التي تقود حياته كلها.
من هنا جاءت الشدة.

فالقرآن لا يشتد على السؤال الصادق.
ولا يضيق بالبحث المتواضع.
ولا يصادر العقل حين يريد أن يفهم.

لكنه يشتد على العقل حين يتحول إلى غرورٍ يتكلم بلا علم.
ويشتد على اللسان حين يجعل القضايا الكبرى مادة عبث.
ويشتد على القلب حين يرفض النور، لا لأنه لم يره، بل لأنه لا يريد أن
يخرج من ظلمته.

(قَتْلَ الْخَرَّاصُونَ)

كلمة تنزع الاحترام الكاذب عن التخمين حين يلبس ثوب الفلسفة.
وعن العبث حين يلبس ثوب الجراءة.
وعن السخرية حين تتظاهر بأنها وعي.
وعن الشك حين لا يكون طريقاً للبحث، بل غطاءً للهروب.

٢. الخرص حين يصير منهج حياة

ليس الخرص موقفاً عابراً فقط.
قد يتحول إلى طريقة كاملة في النظر.
الخراص لا يريد أن يصل إلى الحق، بل يريد أن يظل في منطقة الضباب.
لأن الضباب يريجه من الالتزام.
ما دام كل شيء محتملاً، فلا توبة واجبة.
وما دام كل شيء موضع جدل، فلا عبادة ملزمة.
وما دام كل شيء نسبياً، فلا خطيئة واضحة.
وما دام الغيب لا يدخل تحت حسه، فلا داعي أن يغير حياته لأجله.
هكذا يصبح الخرص حيلة نفسية، لا مجرد شبهة عقلية.

الإنسان أحياناً لا يشك لأنه لم يجد الدليل.

بل يشك لأنه يخاف من نتائج اليقين.

لأن اليقين إذا دخل القلب، طالبه بشيء.

طالبه بأن يتواضع.

بأن يتوب.

بأن يترك.

بأن يقوم.

بأن يردَّ حقاً.

بأن يغير طريقة عيشه.

بأن يعترف أنه ليس سيد نفسه كما يتوهم.

أما الخرص فيمنحه راحةً رخيصة:

ابقَ كما أنت.

قل: لا أدري.

قل: من يثبت ذلك؟

قل: لعل الأمر كله تأويل.

قل: أين يوم الدين؟

ثم امضِ إلى نومك الطويل.

ولهذا جاء بعد الخراصين وصفٌ يكشف حقيقتهم الداخلية: (الَّذِينَ هُمْ فِي

غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

ليست المشكلة أنهم في بحث.

بل أنهم في غمرة.

وليست المشكلة أنهم يسألون.

بل أنهم ساهون.

٣. الغمرة: حين يغرق الإنسان ولا يشعر

(الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

الغمرة هي ما يغمر الإنسان ويحيط به حتى يكاد يغطيه.

ليست غفلة خفيفة على السطح، بل انغماس.

كأن الإنسان مغمور في شيء كثيف يحجبه عن الرؤية.

وهذا التعبير بالغ الدقة.

فالإنسان الغافل لا يقف خارج الحقيقة فقط.

إنه يكون داخل غمرة تمنعه من رؤية خروجه عنها.

قد تغمره الشهوة.

أو المال.

أو الشهرة.

أو الجدل.

أو الحسد.

أو السلطة.

أو الألم.

أو الخصومة.

أو الانشغال اليومي الصغير.

والأخطر أن الغمرة لا تبدو دائماً قبيحة.

قد تكون غمرة أنيقة.

مكتبٌ فاخر.

أضواء كثيرة.

لغة ذكية.

مشاريع متتابعة.

منصات.

تصفيق.

أخبار.

نقاشات.

تحليلات.

ولكن القلب غارق.

كثيرٌ من الغرق لا يشبه البحر.

هناك من يغرق في المال حتى لا يرى الرزاق.

ومن يغرق في الثقافة حتى لا يرى الوحي.

ومن يغرق في السياسة حتى لا يرى الآخرة.

ومن يغرق في الكتابة حتى ينسى الإخلاص.

ومن يغرق في العبادة الظاهرة حتى ينسى انكسار القلب.

ومن يغرق في خصومه حتى ينسى عيوبه.

ومن يغرق في جرحه حتى ينسى أن الله أكبر من الجرح.

(في غَمْرَةٍ)

أي ليس حولهم غبارٌ خفيف يمكن نفضه بسهولة.
بل هم داخل كتلةٍ من الغفلة تغمر الوعي كله.

٤. السهو: غياب القلب عن الحقيقة

ثم قال: ﴿سَاهُونَ﴾

السهو هنا ليس نسيانًا عابرًا، بل غياب القلب عن الأمر الذي ينبغي أن يكون حاضرًا.
والساهي عن الآخرة لا ينقصه الذكاء بالضرورة.
قد يكون ذكيًا في التجارة، حاضرًا في الجدل، يقظًا في حماية مصالحه، سريعًا في اقتناص الفرص، لكنه ساهٍ عن أعظم حقيقة تنتظره.

وهذا من أكثر أمراض الإنسان خفاءً:
أن يكون يقظًا في الصغائر، نائمًا عن الكبائر.
يعرف موعد رحلته، ولا يعرف أنه راحل إلى الله.
يحفظ رقم حسابه، وينسى حسابه الأكبر.
يتابع مؤشرات السوق، ولا يتابع مؤشرات قلبه.
ينزعج إذا تأخر رزقه ساعة، ولا ينزعج إذا تأخر عن توبته سنوات.
يخاف من تقرير طبي، ولا يخاف من صحيفة عمله.
يستعد للقاء مسؤول، ولا يستعد للوقوف بين يدي رب العالمين.

هذا هو السهو المرعب:

أن يكون الإنسان حاضرًا في كل شيء إلا في مصيره.

وسورة الذاريات، وهي سورة اليقين، تكشف هذا السهو في موضعه الصحيح.

فبعد أن تقول إن الدين واقع، تقول إن الخراصين في غمرة ساهون. أي أن إنكارهم ليس قوة عقل، بل ضعف حضور. ليس يقظة فكرية، بل نوم داخلي.

٥. السؤال الساخر: (أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)

ثم تكشف الآيات صورة من صور سهوهم:

(يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)

ليس كل سؤال طلباً للهداية.

هناك سؤال يبحث.

وسؤال يهرب.

وسؤال يتعلم.

وسؤال يسخر.

وسؤال يفتح الباب.

وسؤال يغلقه.

سؤالهم هنا ليس سؤال الظمان إلى الحقيقة، بل سؤال المستبطن المستهزئ.

أين يوم الدين؟

متى سيأتي؟

إن كان حقاً، فلماذا لا نراه؟

لماذا لا يقع الآن؟

والقرآن لا يردّ على هذا السؤال بشرحٍ طويل، بل يضعهم فجأةً أمام المشهد الذي كانوا يسألون عنه: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴿

أي أن السؤال الذي كان مادة سخرية، سيصير مشهدًا حارقًا. والاستعجال الذي كان لعبة لسان، سيصير ذوقًا.

هنا تتحول اللغة إلى مصير.

كم من كلمةٍ يقولها الإنسان مستخفًا، ثم يلقاها ثقيلة. وكم من سؤالٍ ساخرٍ يظنه خفيًا، وهو في حقيقته موقفٌ من الله. وكم من ضحكةٍ على آية، أو استهانةٍ بوعد، أو تلاعبٍ بحقيقة، لا يعلم صاحبها أنه يكتب بها صورته يوم الدين.

﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

هذه الآية تحمل نوعًا من المواجهة الموجهة. كأنها تقول: لقد وصل ما طلبتم. لا لأنه كان محتاجًا إلى استعجالكم، بل لأن مواعده جاء. وها أنتم الآن لا تسألون عنه، بل تذوقونه.

٦. من الخرص إلى الاحتراق

تأمل الانتقال: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ ثم: ﴿فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ ثم: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثم: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾

إنه مسار كامل.

يبدأ بتخمين في العقل.

ثم يتحول إلى غمرة في القلب.

ثم يظهر في سؤالٍ ساخر على اللسان.

ثم ينتهي إلى فتنة على النار.

وهذا من دقة القرآن في كشف المصائر من جذورها.

فالعذاب لا يأتي من فراغ.

له مقدمات داخلية.

طريقة نظر.

حالة قلب.

لغة لسان.

استهانة متكررة.

غفلة تطول حتى تصير طبيعة.

الإنسان لا يسقط دفعةً واحدة غالبًا.

يسقط بالتدريج.

يتساهل أولاً في مصدر المعرفة.

ثم يعتاد الظن.

ثم يبرد قلبه.

ثم يسخر.

ثم يفاجأ بأن السخرية كانت طريقاً إلى الهاوية.

وهذا المعنى مخيف ومربّ.

لأنه يجعل الإنسان يراقب بدايات الانحراف في نفسه، لا نهاياته فقط.
لا ينتظر حتى يكفر بالحق صراحة.
بل يخاف من أول لحظة يتعامل فيها مع الوحي ببرود.
من أول مرة يجعل الآخرة مادة مزاح.
من أول مرة يغطي ضعف التزامه بكلام فلسفي لا يريد به الحقيقة.
من أول مرة يستهين فيها بوعده الله لأنه لم ير أثره بعد.

٧. الفتنة على النار

(يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ)

الفتن في أصلها الإحراق والاختبار، كما يُفْتَن الذهب بالنار ليظهر معدنه.
لكن هؤلاء لا يُفْتَنُونَ ليظهروا، بل ليدوقوا حقيقة ما كذبوا به.

في الدنيا كانوا يفتنون أنفسهم بالظنون.

يفتنون عقولهم بالشبهات العبيثية.

يفتنون قلوبهم بالشهوات.

يفتنون الناس بسخريتهم من الحق.

وفي الآخرة تكون الفتنة على النار.

كأن الجزاء من جنس الحال.

من جعل قلبه في غمرة من الباطل، صار جسده على نار الحقيقة.

ومن استهان بحرارة الوعد، ذاق حرارة الوعيد.

ومن جعل الآخرة مادة سؤالٍ ساخر، صار هو نفسه مادة المشهد.

وهنا تتجلى صرامة العدل.

ليست النار مجرد عقوبة خارجية تنزل بلا معنى، بل هي كشفٌ مناسب
لمسار اختاره الإنسان.

لقد أطفأ في قلبه نور اليقين، فأحاطت به نار المصير.
ولقد لعب بالحق، فجاءه الحق لا يلعب.

٨. (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ)

ثم تأتي الكلمة الأشد: (ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ)

الذوق هنا ليس معرفةً نظرية.

إنه مباشرة.

إحساس.

ملامسة للعاقبة.

في الدنيا كانوا يتعاملون مع يوم الدين كخبرٍ قابل للنقاش البارد.

أما الآن فليس هناك نقاش.

هناك ذوق.

وهذا من أعظم الفروق بين الدنيا والآخرة.

الدنيا دار خبر واختيار.

تسمع، فتصدق أو تكذب.

تقرأ، فتتأثر أو تعرض.

تُنذر، فتتوب أو تؤجل.

أما الآخرة فدار كشف وذوق.

لا يعود الغيب غيبًا.

ولا يعود الوعد خبرًا.

ولا يعود الإنذار احتمالًا.

بل يصير كل شيء حاضرًا.

لذلك كان العقلاء هم الذين يتعاملون مع الخبر في الدنيا بجدية، قبل أن

يتحول إلى ذوق في الآخرة.

(ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ)

كأنها تقول: هذا ما صنعتموه بأنفسكم.

هذه فتنتكم التي اخترتموها.

هذه النار التي كنتم تقتربون منها وأنتم تظنون أنكم تبتعدون عن الخرافة.

هذا حصاد الخرص والسهو والسخرية.

٩. الخراصون في كل عصر

الخراصون ليسوا قومًا انتهوا.

لكل عصرٍ خراسوه.

ولكل زمنٍ لغته في التخمين على الله.

قديمًا كانوا يقولون: أنذا متنا وكنا ترابًا؟

واليوم قد يقولون اللغة نفسها بثيابٍ جديدة:

ما الدليل الحسي؟

كيف يعود الإنسان بعد الفناء؟

أليست الآخرة فكرةً نفسيةً لتعويض المقهورين؟

أليس الدين صناعة اجتماعية؟

أليس الغيب مجرد حاجة بشرية؟

ليست المشكلة في السؤال إذا كان صادقاً.

فالإسلام لا يخاف من السؤال.

ولكن المشكلة حين يكون السؤال مبرمجاً مسبقاً لرفض الجواب.

حين لا يكون بحثاً، بل ستاراً.

حين يتكئ الإنسان على مصطلحاتٍ حديثة ليكرر سخريةً قديمة.

حين يحاكم خبر الله إلى ثقافةٍ متغيرة، ثم يتوهم أنه صار أعمق من الوحي.

الخرص المعاصر قد يكون أكثر أناقة من الخرص القديم.

لكنه في جوهره واحد:

كلامٌ في المصير بغير علمٍ من الله.

جراءةً على الغيب بلا نور.

وسهوّ يلبس ثوب التحليل.

والقرآن لا تنخدع به الأزياء.

يسمي الشيء باسمه:

(قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

١٠. الفرق بين الشك الباحث والخرص الهارب

هنا ينبغي أن نكون دقيقين.

ليس كل من عرضت له شبهة خراسًا.
وليس كل من سأل عن الغيب مستهزئًا.
وليس كل من اضطرب قلبه خارجًا عن طريق النجاة.

هناك قلوبٌ تسأل وهي تريد أن تؤمن.
تتألم من الشك ولا تتلذذ به.
تبحث عن الحق لا عن عذرٍ للانفلات.
تسأل بدمعةٍ خفية: يا رب، دلني عليك.
هذه القلوب ليست من الخراصين، بل هي أقرب إلى الرحمة من كثيرٍ من
الواثقين بأنفسهم.

الخرص المذموم شيء آخر.

هو أن يتكلم الإنسان بغير علم وهو مطمئن إلى جهله.
أن يجعل الظن بديلاً عن الوحي.
أن يحوّل السؤال إلى سخرية.
أن يستخدم الشبهة ليهرب من التكليف.
أن لا يطلب النور، بل يكره أن يراه.

الشك الباحث مرضٌ يطلب الدواء.
أما الخرص فمرضٌ يتفاخر بنفسه.

الشك الباحث يقول: دلوني.

والخرص يقول: لن أصدق.

الشك الباحث يخاف من الضياع.

والخرص يسمى الضياع حرية.

الشك الباحث يتواضع أمام ما لا يعلم.

والحرص يتكبر بما لا يعلم.

وهذا الفرق ضروري؛ حتى لا نقسو على طالب الحق، ولا نلين أمام العايب بالحق.

١١. السهو عن يوم الدين في حياة المؤمن

قد يظن المؤمن أن هذه الآيات لا تخصه؛ لأنها تتحدث عن الخراصين المكذبين.

لكن القرآن حين يصف مرضًا في الكافرين، فهو يحذر المؤمن من جذوره الصغرى.

قد لا يكون المؤمن خراسًا في أصل إيمانه، لكنه قد يقع في شيء من السهو.

قد لا يسأل ساخرًا: أيان يوم الدين؟

لكنه يعيش ساعاتٍ طويلة كأن يوم الدين غير داخل في حسابه.

قد لا ينكر القيامة، لكنه يؤجل أثرها العملي.

قد لا يكذب بالجزاء، لكنه يتعامل مع بعض الذنوب كأنها لن تُعرض عليه.

وهنا تأتي الآيات لتوقظه.

ليس الخوف فقط من أن ينكر الإنسان الآخرة بلسانه.

الخوف أن تضعف الآخرة في قلبه حتى تصير أقل تأثيرًا من خبر عاجل،

أو خصومة صغيرة، أو رغبة عابرة.

كم مرةً نغضب وكأن الدين لا يقع؟
كم مرةً نكتب كلمةً جارحة وكأن الدين لا يقع؟
كم مرةً نسيء الظن ونبني عليه وكأن الدين لا يقع؟
كم مرةً نترك قيام الليل لا لعذر، بل لأن القلب لا يرى موعدًا يستحق؟
كم مرةً نستسلم لقلق الرزق وكأن السورة لم تقل بعد قليل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

إذن لهذه الآيات حظٌّ من المراجعة الداخلية لكل مؤمن.
لا من جهة أصل التكذيب، بل من جهة آثار السهو.

١٢. الخرص الفكري والخرص العملي

هناك خرصٌ في الكلام، وخرصٌ في السلوك.

خرص الكلام أن يتحدث الإنسان عن الله والآخرة والوحي بلا علم.
وخرص السلوك أن يعيش الإنسان كأن حساباته أصدق من وعد الله.

فالذي يقول بلسانه: الله هو الرزاق، ثم يبيع دينه لأجل رزق؛ عنده لونٌ من الخرص العملي.

والذي يقول: الآخرة خير وأبقى، ثم ينهار لأجل حظٍّ صغير؛ عنده لونٌ من الخرص العملي.

والذي يقول: الله يرى، ثم يخلو بما لا يرضيه؛ عنده تناقضٌ بين المعلومة والحضور.

والذي يقول: الدين واقع، ثم يظلم وهو مطمئن؛ لم يسمح لليقين أن يحكم يده.

ليس هذا تكفيرًا ولا إسقاطًا، بل تشخيصٌ تربوي.

فالقُرآن لا يريد من المؤمن أن تكون عقيدته صحيحة في الكتب فقط، بل أن تكون صحيحة في ردود فعله، واختياراته، وخلواته، وخوفه، ورجائه.

اليقين الحقيقي ليس ما تقوله عند الهدوء فحسب.
بل ما يحكمك عند الفتنة.

١٣. الغمرة الحديثة: ضجيج بلا يقظة

لو أردنا أن نبحث عن صورة الغمرة في عصرنا، فلن نجدها في النوم وحده.

بل ربما نجدها في فرط الاستيقاظ الخارجي.

هواتف لا تنام.

أخبار لا تنتهي.

تعليقات لا تسكت.

مقاطع متتابعة.

معارك صغيرة.

آراء سريعة.

مقارنات قاتلة.

استهلاك مستمر للانتباه.

الإنسان المعاصر لا يعاني من قلة المعلومات، بل من ضياع البصيرة وسط كثرتها.

غمرة ليست جهلاً فارغاً، بل امتلاءً فوضوياً.

يعرف كثيراً مما لا ينفعه، وينسى القليل الذي ينقذه.

وهذا أخطر.

لأن الجهل البسيط قد يدفع صاحبه إلى التعلم.
أما الغمرة الحديثة فتمنح الإنسان وهم المعرفة.
يشعر أنه حاضر لأنه متصل بكل شيء، بينما قلبه غائب عن الله.
يشعر أنه متابع، لكنه لا يتابع مصيره.
يشعر أنه يعرف العالم، لكنه لا يعرف أين يقف من ربه.

(فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

ما أصدقها على إنسانٍ غمرته الشاشات، وسها عن السجود.
غمرته الأخبار، وسها عن القرآن.
غمرته صور الناس، وسها عن صورته يوم يقف وحده.
غمرته الدنيا، وسها عن الدين الواقع.

١٤. العلاج: من الغمرة إلى الذكر

ما علاج الغمرة؟

ليس العلاج أن يكره الإنسان الحياة، ولا أن ينسحب من واجباته، ولا أن يعيش معزولاً عن عصره.
العلاج أن يسترد مركزه.

أن يجعل الوحي هو المركز، لا الضجيج.
أن يجعل الصلاة تقطع عليه الغفلة خمس مرات في اليوم.
أن يجعل القرآن يعيد ترتيب الداخل.

أن يجعل الليل نصيبًا من الخلوة.
أن يجعل الاستغفار تنظيفًا دائمًا للوعي.
أن يجعل ذكر الآخرة حاضرًا لا موسميًا.
أن يجعل العلم طريقًا إلى الخشية، لا إلى الجدل البارد.

الغفلة تغمر، والذكر يكشف.
الغفلة تثقل، والقرآن يخفف.
الغفلة تشتت، والصلاة تجمع.
الغفلة تجعل الإنسان يسبح في السطح، واليقين يعيده إلى العمق.

ولذلك ستأتي آيات المحسنين بعد هذا المشهد مباشرةً تقريبًا، لتقدم البديل: ﴿إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

كأن السورة بعد أن كشفت الخراصين، تقول: وهناك فريق آخر.
لم يعيشوا في غمرة.
لم يسألوا ساخرين.
لم يناموا عن الوعد.
بل أحسنوا، وقاموا الليل، واستغفروا بالأسحار.

أي أن الخروج من الغمرة ليس بالجدل وحده، بل بالعبادة التي تعيد للقلب
حساسيته.

١٥. بين الخراصين والمحسنين

في السورة تقابلٌ عجيب بين الفريقين.

الخراصون في غمرة ساهون.

والمتقون في جنات وعيون.

الخراصون يسألون: أيان يوم الدين؟

والمتقون استعدوا له قبل أن يأتي.

الخراصون استخفوا بالوعد.

والمتقون صدقوه حتى قاموا في الليل.

الخراصون غمرتهم الغفلة.

والمتقون أفاقوا في الأسحار.

الخراصون ذاقوا فتنهم.

والمتقون أخذوا ما آتاهم ربهم.

هذا التقابل ليس مجرد مقارنة بين مصيرين.

إنه دعوة إلى اختيار الطريق.

كل إنسان في داخله قابلية للسهو، وقابلية لليقين.

قابلية أن يهرب بالسخرية، وقابلية أن يعود بالسجود.

قابلية أن يغرق في الغمرة، وقابلية أن ينهض في السحر.

قابلية أن يسأل: أين يوم الدين؟

وقابلية أن يقول: كيف أستعد ليوم الدين؟

والقرآن ينفذ الإنسان حين يجعله يرى الطريقين قبل أن يتحول أحدهما إلى

مصير نهائي.

١٦. خلاصة الفصل

تأتي آيات الخراصين في سورة الذاريات بعد تقرير الوعد والدين الواقع،
لتكشف العدو الداخلي لليقين:

الخرص، والغمرة، والسهو، والسؤال الساخر.

(قَتِلَ الْخَرَّاصُونَ)

إدانةً للتخمين حين يتجرأ على الغيب بلا علم.

(الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

كشفٌ لحالة القلب حين يغرق في الدنيا أو الشهوة أو الجدل أو الضجيج،
حتى يغيب عن مصيره.

(يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ)

فضحٌ للسؤال حين لا يكون طلباً للهداية، بل أداة للاستهزاء والهروب.

ثم يأتي الردّ لا كنقاشٍ طويل، بل كمشهد: (يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٦﴾
ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ)

أي أن الغيب الذي جعلوه مادة خرص، سيصير حقيقةً تذاق.

واليوم الذي استعجلوه ساخرين، سيواجههم واقعاً لا يستطيعون دفعه.

ومن هنا يتعلم المؤمن أن اليقين لا يحفظه العلم وحده، بل تحفظه اليقظة.

وأن الغفلة ليست نقص معلومات، بل غرق قلب.

وأن السؤال لا يكون شريعاً إلا إذا كان الطريق إلى الحق، لا حيلة للفرار
منه.

وأن أكثر ما يحتاجه الإنسان أمام الوعد الصادق ليس ذكاءً يكثّر التخمين، بل قلباً يخرج من الغمرة، ويعود إلى الله.

فالخطر ليس أن لا يعرف الإنسان كل التفاصيل. الخطر أن يسهو عن الحقيقة التي تكفيه للنجاة.

والحقيقة هنا واضحة:

الوعد صادق. والدين واقع. والغافلون في غمرة. والناجون هم الذين استيقظوا قبل أن يأتي اليوم الذي لا تنفع فيه اليقظة المتأخرة.

الفصل الرابع

السَّهَرُ المَجْهُولُ

قراءة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠٠﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٠١﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٠٢﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٠٣﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾

بعد مشهد الخراصين، وبعد الغمرة والسهو والسؤال الساخر عن يوم الدين، يفتح السياق فجأة نافذة على الجهة الأخرى.

هناك فريق لم يعش في الغمرة.

لم يستهزئ بالوعد.

لم يجعل الآخرة سؤالاً ساخرًا.

لم ينتظر يوم الدين ليصدق يوم الدين.

بل أخذ الوعد بجدية مبكرة، فكان جزاؤه أن يؤخذ إلى عالم آخر: ﴿إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

ما أرق هذا الانتقال، وما أهيبه.

قبل قليل: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾

والآن: ﴿فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

هناك نار.

وهنا عيون.

هناك فتنةٌ وذوق عذاب.

وهنا أخذٌ لعطاء الرب.

هناك استعجالٌ ساخر.

وهنا انتظارٌ مؤمن أثمر نعيمًا.

كأن السورة تضع الإنسان أمام مفترقين لا ثالث لهما:

إما غمرةٌ تنتهي إلى نار،

وإما يقظةٌ تنتهي إلى جناتٍ وعيون.

١. (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

ليست الجنة هنا مجرد مكانٍ جميل.

إنها الجواب النهائي على حياةٍ اتقت.

(الْمُتَّقِينَ)

كلمة تختصر مسارًا طويلًا من المراقبة والمقاومة والتصحيح.

المتقي ليس إنسانًا بلا ضعف.

بل هو إنسانٌ جعل بينه وبين غضب الله وقاية.

كلما دعت شهوةٌ، تذكر.

وكلما هجم عليه خوفٌ، اعتصم.

وكلما وسوس له الظلم، ارتدع.

وكلما سقط، تاب.

وكلما أعجبته نفسه، استغفر.

وكلما توسعت الدنيا في يده، خاف أن تضيق الآخرة في قلبه.

التقوى ليست حالة جامدة.

إنها يقظة مستمرة.

ولهذا ناسبت سورة الذاريات؛ لأنها سورة إيقاظ.

فالخراصون في غمرة ساهون، والمتقون في يقظة محسنون.

أولئك ساهون عن يوم الدين، وهؤلاء عاشوا كأن يوم الدين ينظر إليهم.

ثم تأتي الجائزة:

(فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)

الجنة تعطي معنى الامتداد والجمال والظل والثمار.

والعيون تعطي معنى الجريان والصفاء والحياة والارتواء.

كأن الجزاء جاء مناسباً لحياة كان أصحابها يحيون في الدنيا تحت حرّ

المجاهدة وعطش الشوق.

من عطش قلبه إلى الله في الدنيا، سقاه الله من عيون الآخرة.

ومن حرم نفسه شيئاً لله، فتح الله له جناتٍ لا تضيق.

ومن قام في ظلمة الليل، أدخل في نور النعيم.

ومن ترك هجوّاً قليلاً، أخذ عطاءً لا ينفد.

٢. (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

ليست الآية تقول: داخلين فقط.

بل تقول: (آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)

هناك مشهد أخذ.

تلقى.

قبول.

رضا.

كرامة.

كأنهم لم يدخلوا الجنة دخول ناجٍ فقط، بل دخول مكرَّم يتلقى عطايا ربه.

والتعبير بـ (رَبُّهُمْ) شديد اللطف في هذا الموضع.

لم يقل: ما آتاهم الله، مع أن كل عطاءٍ من الله.

بل قال: (رَبُّهُمْ)؛ لأن الربوبية فيها معنى التربية والرعاية واللطف والتدبير.

ربهم الذي رآهم في الليل حين لم يرههم أحد.

ربهم الذي علم دموعهم الخفية.

ربهم الذي رأى قلة هجوعهم.

ربهم الذي سمع استغفارهم بالأسحار.

ربهم الذي علم ما أعطوا للسان والمحروم.

ربهم الذي ربّاهم في الدنيا بالطاعة، يكرمهم في الآخرة بالعطاء.

ما أعذب أن يلقي العبد نتيجة تربيته الربانية.

كانوا في الدنيا يأخذون أوامر ربهم بالقبول، فأصبحوا في الآخرة يأخذون عطاء ربهم بالنعيم.

كانوا يتركون لأجله، فأعطاهم.

كانوا يقومون له، فأجلسهم في جناته.

كانوا يستغفرون وهم محسنون، فأكرمهم وهو الغفور الكريم.

٣. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

هنا تفتح السورة باب السبب.

لماذا وصلوا إلى جناتٍ و عيون؟

لماذا أخذوا ما آتاهم ربهم؟

ما تاريخ هذا النعيم؟

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

قبل ذلك.

قبل الجنة.

قبل العيون.

قبل الأخذ.

قبل انكشاف الغيب.

قبل أن يروا ما وعدوا.

كانوا محسنين.

هذه العبارة تكشف أن الآخرة ليست قطيعةً مع الدنيا، بل ثمرة لها. ليست الجنة حادثاً معزولاً عن حياة أصحابها، بل امتدادٌ كريم لحقيقة كانت فيهم.

كانوا قبل ذلك محسنين.

أي أن الجنة لم تبدأ يوم دخلوها فقط.

لقد بدأت بذرتها في الدنيا، في قلب أحسن، ويد أحسنت، ولسان أحسن، وليل أحسن، ومال أحسن.

الإحسان هو السرّ الجامع هنا.

ولم يقل: كانوا مصلين فقط.

ولا: كانوا صائمين فقط.

ولا: كانوا عابدين فقط.

بل قال: (مُحْسِنِينَ).

لأن الإحسان أوسع من صورة العمل.

الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وأن تتعامل مع خلقه بروح ترى الله.

الإحسان حضورٌ داخلي قبل أن يكون حركةً خارجية.

هو جودة القلب حين يعمل.

ونقاء القصد حين يعطي.

ورقة الخوف حين يختلي.

وجمال الأداء حين لا يراقبه الناس.

قد يفعل إنسانان العمل نفسه، وبينهما كما بين السماء والأرض.
هذا يصلي بجسدٍ حاضر وقلبٍ غائب، وهذا يصلي كأنه يغسل روحه.
هذا يعطي ليذكر، وهذا يعطي لينجو.
هذا يسهر لمصلحة الدنيا، وهذا يسهر لأن قلبه لا ينام عن الله.
هذا يستغفر بلسانه، وهذا يستغفر كأنه يضع قلبه المكسور على باب
الرحمة.

الإحسان هو الفارق الخفي.

ولهذا قال: ﴿مُحْسِنِينَ﴾ قبل أن يذكر أعمالهم.
كأن العمل لا يُقرأ في القرآن من صورته فقط، بل من روحه.

٤. الإحسان قبل التفاصيل

بعد قوله: ﴿كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ جاءت التفاصيل: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ
مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ
وَالْمَحْرُومِ﴾

وهذا الترتيب عجيب.

بدأ بوصفٍ كلي: محسنين.
ثم كشف ثلاثة مظاهر كبرى للإحسان:

إحسانهم مع الله في الليل.

وإحسانهم مع أنفسهم بالاستغفار.

وإحسانهم مع الخلق بالمال.

ليلٌ مع الله.

سحرٌ مع الذنب.

مالٌ مع المحتاج.

كأن القرآن يرسم شخصية المتقي من ثلاث جهات:

جهته إلى ربه.

وجهته إلى نفسه.

وجهته إلى الناس.

فليس المتقي منقطعاً في محرابه عن وجع الفقراء.

وليس محسناً اجتماعياً بلا خلوةٍ تطهر قلبه.

وليس عابداً مغروراً بقيامه لا يستغفر من تقصيره.

بل هو إنسانٌ متكامل:

يقوم، ويستغفر، ويعطي.

وهذه ثلاثية بديعة في بناء الإنسان.

قيام الليل يمنحه الصلة.

والاستغفار يمنحه الانكسار.

والبذل يمنحه الرحمة.

فإذا اجتمعت الصلة والانكسار والرحمة، ولد الإحسان.

٥. (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

هنا نصل إلى السرّ الذي أشار إليه السكران: السهر المجهول.

(كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

القرآن لا يقول: كانوا كثيرًا من النهار يعملون، مع أن العمل مطلوب.
ولا يقول أولًا: كانوا مشهورين بالدعوة، مع أن الدعوة شرف.
ولا يقول: كانوا أصحاب حضور اجتماعي واسع، مع أن نفع الناس باب خير.

بل يكشف سرًا يقع في الليل.

الليل.

حين تسقط زينة النهار.

حين ينام المادح والذام.

حين لا يبقى من الجمهور أحد.

حين تضع الدنيا ضجيجها جانبًا.

حين لا يسمعك إلا الله.

حين تكون العبادة أقرب إلى الصدق؛ لأنها أقل تعرضًا للتزيين.

هناك كان يتكوّن هؤلاء.

لا في المشاهد المزدحمة وحدها.

ولا في الأضواء.

ولا في المنابر.

ولا في ساحات الثناء.

بل في المنطقة التي يختبر فيها القلب على حقيقته:

هل يريد الله، أم يريد صورة نفسه وهو يريد الله؟

قيام الليل يفضح كثيرًا من الدعاوى.

ففي النهار قد تدفعك الحماسة.

وقد يعينك الناس.

وقد تحركك المنافسة.

وقد يحمل العمل شيء من الواجهة.

أما الليل فلا يعطيك إلا صدقك.

الليل لا يصفق.

لا ينشر صورتك.

لا يزيد متابعيك.

لا يمنحك لقبًا.

لا يسمع أنينك فيه إلا الله.

ولذلك كان عظيمًا.

ليس لأنه صعبٌ فقط، بل لأنه خالصٌ غالبًا.

وليس لأنه تركٌ للنوم فقط، بل لأنه اختيارٌ لله حين يكون النوم محبوبًا

ومباحًا وقريبًا.

٦. قليلاً من الليل

التعبير القرآني دقيق: (قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

الهجوع هو النوم بالليل.

فكان نومهم كان قليلاً.

أو كان الزمن الذي يهجعون فيه من الليل قليل.

والآية لا تريد أن تضع لنا رقماً جامداً، بل تكشف طبيعة علاقة هؤلاء بالليل.

لم يكن الليل عندهم كتلة نومٍ كاملة.

كان فيه حقٌّ لله.

هنا تظهر التربية العميقة.

الإسلام لا يعادي النوم، ولا يحتقر حاجة الجسد، ولا يريد من الإنسان أن يحطم بدنه باسم العبادة.

لكن الآية تكشف أن هناك قلوباً لم تستطع أن تجعل الليل كله للفراش.

كان لابد أن تترك لله منه نصيباً.

كأنها تستحي أن يمر الليل كاملاً دون وقوفٍ بين يديه.

ليست القضية في طول القيام فقط، بل في معنى أن يكون لله من ليلك سهم.

قد يبدأ الإنسان بركعتين.

بآيات قليلة.

بسجدة صادقة.

بدمعة في الظلام.

بقيامٍ قصير لكنه حي.

لكن هذا القليل إذا صدق، فتح بابًا عظيمًا.

فالليل ليس مقياسًا كمياً فقط.

إنه مقياس علاقة.

هناك من يطيل القيام وقلبه متعبٌ بصورته.

وهناك من يقوم قليلاً، لكنه يدخل على الله بقلبٍ منكسر، فيكون لقليله وزن.

ومع ذلك تبقى الآية عالية السقف.

تقول لنا إن للمتقين سرًّا مع الليل، وإن من أراد جناتٍ وعيونًا، فلا ينبغي أن

تكون علاقته بالليل علاقة جسدٍ ينام فقط.

٧. لماذا الليل؟

لماذا اختارت الآيات الليل؟

لأن الليل يختبر صدق المحبة.

في النهار تتداخل الدوافع.

أما في الليل، فالدوافع تنكشف.

من الذي يوقظك حين لا يراك أحد؟

من الذي يجعلك تترك دفء الفراش؟

من الذي يدعوك إلى الضوء حين يثقل الجسد؟

من الذي يجعلك تقف وتقرأ، وربما لا يسمع صوتك إلا الجدار والملائكة؟

إنه اليقين.

لا يقوم الليل عادةً إلا من صار الغيب عنده حيًا.

من صدق أن الله يراه.

وأن الوعد صادق.

وأن الدين واقع.

وأن السهر هنا لن يضيع هناك.

ولهذا جاء قيام الليل بعد تقرير الوعد ويوم الدين.

فالذي صدق الوعد، ظهر صدقه في الليل.

والذي آمن أن الدين واقع، لم ينم عن الاستعداد له.

قيام الليل هو ترجمة جسدية لليقين.

الجسد ينهض لأن القلب صدّق.

والعين تفارق النوم لأن الروح رأت ما هو أبقي.

واللسان يقرأ لأن الغيب صار أعمق حضورًا من الفراش.

ما أبلغ أن يكون الفراش شاهدًا على الإيمان.

كان يستطيع أن ينام، لكنه قام.

كان يستطيع أن يطيل الراحة، لكنه اختار الوقوف.

كان يستطيع أن يترك الليل كله لجسده، لكنه ترك بعضه لربه.

٨. السهر المجهول وصناعة الإنسان

هناك أعمالٌ ظاهرة تصنع السمعة.

وهناك أعمالٌ خفية تصنع الإنسان.

قيام الليل من النوع الثاني.

قد لا يضيف إلى سيرتك أمام الناس شيئاً.
لكنه يضيف إلى روحك شيئاً لا يراه الناس ثم يرونها في أثرك.
تري الإنسان أهدأ في الفتن، وأصدق في المواقف، وأصفى في الكلمة،
وأثبت عند الخوف، وأرحم بالناس، وأقل احتياجاً إلى ثنائهم.
ثم تبحث عن السبب، فلا تجده في الظاهر.
ربما كان هناك في الليل.

الليل يربّي ما لا تستطيع المنابر وحدها أن تربيّه.

يربي الصدق.

يربي الخشية.

يربي الانكسار.

يربي الاستقلال عن مدح الناس.

يربي القدرة على الصبر.

يربي الأنس بالله.

يربي قوة هادئة لا تعرف الصخب.

وهذا هو السهر المجهول.

ليس مجهولاً عند الله.

بل مجهولٌ عند الناس.

وما كان مجهولاً عند الناس معلوماً عند الله، كان أصفى وأبقى.

كم من إنسانٍ رفعه الله بعبادةٍ لا يعرفها عنه أحد.
وكم من قلمٍ بارك الله أثره لأن صاحبه كان يغسل حروفه في السحر.
وكم من داعيةٍ ثبتته الله لأنه لم يعتمد على صوته وحده، بل كان له في الليل بكاء.

وكم من مظلومٍ لم يسقط لأنه كان ينهض حين ينام الذين ظلموه.
وكم من قلبٍ نجا من الغلّ والحسد لأنه كان يضع أوجاعه في سجدةٍ لا يشهدها البشر.

الليل ليس هامشاً في حياة المؤمن.
إنه معملٌ خفي لتكوين الروح.

٩. لا بطولة بلا خفاء

من أمراض الإنسان أنه يحب أن تُرى فضائله.
يريد أن يكون صالحاً، وأن يعرف الناس أنه صالح.
يريد أن يتألم، وأن يعرف الناس أنه تألم.
يريد أن يضحى، وأن تبقى التضحية مسجلة باسمه.
يريد أن يعمل لله، ثم لا يكره أن تأتيه حصة النفس من الثناء.

وهذه طبيعة تحتاج إلى مجاهدة.

جاء قيام الليل ليكون مدرسة الخفاء.

هناك يتعلم الإنسان أن يكفيه علم الله.
أن لا يحتاج في كل خير إلى شاهدٍ من الخلق.
أن لا ينهار إذا لم يُذكر.

أن لا يغضب إذا نُسي.

أن لا يفتش عن أثره في عيون الناس قبل أثره عند الله.

والغريب أن من صدق في الخفاء، ألقى الله له أثرًا في العلن ولو لم يطلب.

ليس بالضرورة شهرةً، فقد تكون الشهرة فتنة.

ولكن نورًا.

قبولًا.

ثباتًا.

حكمة.

هيبة صامته.

طمأنينة في الكلمة.

صفاء في الوجه.

صدقًا في الأثر.

إن الله يكسو أهل الخفاء من عنده.

١٠. (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

ثم تأتي الآية التي تكشف اكتمال الجمال: (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

قاموا قليلاً من الليل ما يهجعون.

ثم ماذا؟

هل أصبحوا معجبين؟

هل رأوا لأنفسهم فضلاً؟

هل دخلوا الصباح وهم يقولون: نحن أهل القيام؟

لا.

دخلوا السحر مستغفرين.

وهنا تبلغ العبادة ذروة صفائها.

الاستغفار بعد القيام معناه أن هؤلاء لم يروا قيامهم كافياً.

لم يروا عبادتهم تليق بجلال الله.

لم يجعلوا الطاعة سبباً للغرور، بل سبباً لمزيد من الانكسار.

وهذا هو الفرق بين عبادة العارف وعبادة المعجب.

المعجب إذا أطاع، رأى نفسه.

والعارف إذا أطاع، رأى فضل الله وتقصير نفسه.

المعجب يقول بعد الطاعة: من مثلي؟

والعارف يقول: سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

المعجب يخرج من العمل مطالباً بحقه.

والعارف يخرج منه طالباً عفو ربه.

من هنا نفهم لماذا جاء الاستغفار بالأسحار بعد قيام الليل.

لأن العمل العظيم يحتاج إلى حارسٍ من الغرور.

وأعظم حارسٍ للطاعة هو الاستغفار بعدها.

١١. سحر الاستغفار

السحر وقتٌ عجيب.

هو آخر الليل، حين يكون السكون في أرقّ حالاته.

وقتٌ بين الظلام والفجر.

بين النوم والصحو.

بين نهاية يومٍ مضى وبداية يومٍ يولد.

كأنه موضعٌ مناسبٌ للعودة.

وفي هذا الوقت يستغفرون.

لا يستغفرون لأنهم كانوا غارقين في المعصية فقط، بل لأن قلوبهم المحسنة

ترى التقصير حتى بعد الإحسان.

كلما اقترب الإنسان من الله، ازدادت حساسيته للذنوب.

وكلما صفا قلبه، رأى الغبار الذي كان لا يراه.

وكلما ارتفع، صارت الهفوة في عينه كبيرة؛ لا يأساً من رحمة الله، بل حياءً

منه.

ولهذا كان الاستغفار علامة حياة القلب.

القلب الميت لا يشعر بالحاجة إلى المغفرة.

والقلب الغافل يؤجل الاستغفار لأنه لا يرى الخطر.

أما القلب الحي فيستغفر حتى بعد الطاعة، لأنه يعرف أن العبد لا ينجو

بعمله مجرداً، بل برحمة الله.

(وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

ما أرق أن يختم العبد ليله لا بفخر الطاعة، بل بطلب المغفرة.
كأنه يقول: يا رب، هذا جهدي، وهذا فقري.
هذا قيامي، وهذا تقصيري.
هذه ركعاتي، وهذا احتياجي إلى عفوك.
إن لم تغفر لي، لم ينفعني أنني قمت.
وإن لم تقبلني، فماذا صنعت؟

١٢. قيام لا يصنع قسوة

هناك عبادة تزيد صاحبها رحمة، وعبادة تزيد صاحبها قسوة.
والفرق ليس في صورة العبادة، بل في القلب الذي يؤديها.
القيام إذا صحّ، جعل الإنسان أرحم.
لأنه يرى ضعفه أمام الله.
والاستغفار إذا صدق، منعه من احتقار الناس.
لأنه يعرف ذنبه.
ومن عرف ذنبه، خفت حدته على ذنوب الخلق.
لذلك لم تقف الآيات عند الليل والسحر، بل قالت:

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

كأن القرآن يقول: قيامهم لم يحبسهم في ذواتهم.
واستغفارهم لم يجعلهم منشغلين بخلاص فردي بارد.

بل خرج أثر الليل في النهار.

خرج في المال.

في الرحمة.

في الشعور بحق المحتاج.

هذه نقطة مركزية.

من علامات العبادة الصحيحة أنها تجعل الإنسان أوسع قلباً على الناس.

لا تجعله متكبراً بصلاته.

ولا قاسياً بقيامه.

ولا محتقراً لمن تعثر.

ولا غافلاً عن الجائع والمحروم.

الذي قام لله حقاً، رَقَّ لخلق الله.

والذي استغفر بصدق، لم يبخل على من كسرتهم الحياة.

والذي ذاق فقره إلى الله، فهم فقر الناس إليه.

١٣. (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

تأمل التعبير: (وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ)

لم يقل: ومن أموالهم تفضل.

ولا: في أموالهم نافلة عابرة.

بل: حق.

هذه الكلمة تهدم غرور الملكية المطلقة.

المال مال الله في الحقيقة، والإنسان مستخلف فيه.
فإذا جاء المحتاج، فليس حضوره مجرد طلبٍ مزعجٍ من مالك الخاص، بل
هو تذكير بحقٍّ أودعه الله في مالك.

المتقون لا يرون الفقراء عبئاً على أموالهم، بل يرون فيهم باباً إلى الله.
ولا يرون العطاء منّةً خالصة، بل أداءً لحق.
وهذا يطهر العطاء من التعالي.

هناك من يعطي وهو يشعر أنه فوق الآخذ.
وهناك من يعطي وهو يستحي من الله؛ لأنه يعلم أن ما أعطاه قليل مما
أعطى.

الأول يعطي مالاً وقد يؤذي قلباً.
والثاني يعطي مالاً ويرفع إنساناً.

(حَقُّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

السائل ظاهر الحاجة.
أما المحروم فحاجته خفية أو ممنوعة.
قد لا يسأل تعففاً.
وقد لا يصل إليه الناس.
وقد يحاصره الفقر بصمت.
وقد يبدو متماسكاً وهو مكسور.
لذلك لا يكتفي المتقي بمن يمد يده، بل يبحث بقلبه عن المحروم الذي منعه
كرامته من السؤال.

الإحسان لا ينتظر دائماً أن تصرخ الحاجة.
الإحسان يتفقد الصمت.

١٤. من الليل إلى المجتمع

عجيبٌ هذا القرآن.

يبدأ بوصف قيام الليل، ثم ينتهي بحق السائل والمحروم.
لئلا يظن أحدٌ أن طريق الجنة روحانية منعزلة عن آلام الناس.

العبادة في سورة الذاريات ليست هروباً من المجتمع، بل إعدادٌ للرحمة فيه.

الليل يطهر الدافع.
والسحر يكسر العجب.
والمال يثبت صدق الرحمة.

فالذي يقوم الليل ثم لا يشعر بالجائع، في قيامه نقص.
والذي يستغفر بالأسحار ثم يتكبر على السائل، في استغفاره خلل.
والذي يتحدث عن الجنة والعيون ثم ينسى المحرومين حوله، لم يفهم أن
طريق الجنة يمرّ أحياناً من يد فقير.

ليست العبادة علاقة عمودية مع الله فقط، بل لها أثر أفقي في الخلق.
غير أن الأثر الأفقي لا يستقيم إلا إذا صحت العلاقة العمودية.

من هنا نفهم لماذا بدأ بالليل.
لأن من لم يصلح بينه وبين الله، قد يتحول عطاؤه للناس إلى استعراض.

ومن لم ينكسر بالاستغفار، قد يتحول إحسانه إلى سلطة.
ومن لم يرَ المال أمانةً عند الله، قد يعطي وهو يشتري به ولاءً أو سمعة.
أما المتقون، فليلهم يحرس نهارهم.

١٥. السهر المجهول والحق المعلوم

في هذه الآيات توازنٌ بديع بين الخفاء والظهور.
قيام الليل خفي.
الاستغفار بالأسفار خفي.
لكن حق السائل والمحروم ظاهر في التعامل.
كأن السورة تقول: لا يكفي أن يكون لك سرٌّ مع الله لا يظهر أثره في الناس،
ولا يكفي أن يكون لك نفعٌ للناس لا يقوم على سرٍّ مع الله.
الإيمان الكامل يحتاج إلى باطنٍ حي وظاهرٍ رحيم.
هناك من يحب الخفاء لأنه يخاف من مسؤولية النفع.
وهناك من يحب الظهور لأنه لا يطيق مواجهة نفسه في الخفاء.
أما المتقي، فيجمعهما:
له ليلٌ لا يعلمه الناس، وله نهارٌ ينتفع به الناس.
وهذا من أرقى صور التدين.

ليس تدين الزاوية المغلقة فقط.
ولا تدين المنصة الصاخبة فقط.

بل تدين القلب الذي يعرف طريقه إلى الله في الظلام، ثم يعرف حق عباد الله في الضوء.

١٦. لماذا استحقوا جناتٍ وعيوناً؟

الآيات تجيب بوضوح.

استحقوا برحمة الله لأنهم كانوا قبل ذلك محسنين.
وإحسانهم ظهر في ثلاثة مقامات:

لم يناموا الليل كله عن الله.
ولم يغتروا بطاعتهم، فاستغفروا.
ولم يحبسوا المال عن أهله، فأعطوا.
وهذه الثلاثة تكشف حقيقة الإيمان.

قيام الليل يكشف صدق العلاقة بالله.
والاستغفار يكشف صدق المعرفة بالنفس.
والبذل يكشف صدق الرحمة بالخلق.

من صحت علاقته بالله، ولم يعرف عيب نفسه، خيف عليه العجب.
ومن عرف عيب نفسه، ولم يرحم الخلق، خيف عليه الانغلاق.
ومن رحم الخلق، ولم يتصل بالله، خيف على رحمته من التلوث بالهوى.

أما هؤلاء فجمعوا الأصول الثلاثة.

لذلك قيل في أولهم: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾

فالتقوى ليست حركة واحدة.

إنها نظام حياة.

١٧. السهر الذي يهزم الغمرة

إذا ربطنا هذا الفصل بما قبله، ظهر المعنى أكثر.

الخراسون: (فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ)

والمثقون: (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)

السهر هناك يقابله السهر هنا.

هو لاء غرقوا في الغمرة حتى سألوا ساخرين عن يوم الدين.

وهو لاء خرجوا من الغمرة بالسهر لله استعدادًا ليوم الدين.

الغافل ينام قلبه ولو استيقظ جسده.

والمؤمن يستيقظ قلبه ولو نعس جسده.

وهنا تظهر عبقرية التعبير عن السهر المجهول.

إنه ليس مجرد فضيلة فردية، بل مقاومة للغمرة.

الليل عند المؤمن ليس نومًا فقط، بل تدريب على الخروج من أسر الدنيا.

كلما قام لله، تذكر أن له مصيرًا.

وكلما استغفر، تذكر أن له ذنبًا.

وكلما أعطى، تذكر أن المال ليس إلهاً.

بهذا يخرج من الغمرة.

لا يخرج منها بالتنظير وحده.
بل بعبادات تكسر سلطان الغفلة عملياً.

١٨. قيام الليل ليس ترفاً روحياً

قد يظن بعض الناس أن قيام الليل مقام خاص لا علاقة له بمقاومة الحياة.
والحقيقة أنه من أعظم مصادر القوة.

ليس لأنه يمنح الإنسان طاقةً نفسية فقط، بل لأنه يعيد ترتيب ولائه.
من وقف بين يدي الله في الليل، صغرت في عينه عروش النهار.
ومن بكى لله في الخفاء، قلّ خوفه من وجوه الخلق.
ومن استغفر في السحر، لم يعد أسيراً لصورة كاملة عن نفسه.
ومن ذاق الأُنس بالله، لم يبيع روحه لأجل قبول الناس.

قيام الليل يصنع حريةً داخلية.

الإنسان الذي لا يملك خلوةً مع الله يبقى غالباً تحت رحمة الخارج:
مدح الناس يرفعه.

وذمهم يهدمه.

الرزق يقلقه.

والخصومة تبتلعه.

والأحداث تجرّه.

والأضواء تفتنه.

أما صاحب الليل، ففي داخله موضعٌ لا يصل إليه الناس بسهولة.
له سرٌّ يحتمي به.

له بابٌ يعود إليه.

له بكاءٌ يفرغ فيه أثقاله.

له موعدٌ يستردّ فيه روحه من فوضى النهار.

وهذه ليست مثالية بعيدة.

إنها منطق الآيات.

فالذين صاروا في جنات وعيون لم يكونوا ملائكة في الدنيا.

كانوا بشرًا يجاهدون النوم، ويستغفرون، ويعطون.

أي أنهم بنوا نجاتهم بأعمالٍ ممكنة، لكنها صادقة.

١٩. حين يتحول الليل إلى شاهد

كل ليلٍ يمر على الإنسان يشهد له أو عليه.

إما أن يكون ليلاً كله غفلة.

أو ليلاً كله تعبًا في مباح.

أو ليلاً كله ذنبًا.

أو ليلاً فيه سهمٌ لله.

ليس كل الناس قادرين على قيام طويل.

ولا كل الظروف متساوية.

هناك المريض.

والعامل المتعب.

والأم المنهكة.

والخائف.

والفقير الذي ينهكه طلب الرزق.
لكن يبقى السؤال: هل لله من ليلنا نصيبٌ ما؟

قد يكون النصيب ركعتين.
وقد يكون وترًا بخشوع.
وقد يكون استغفارًا قبل الفجر.
وقد يكون قراءة آيات.
وقد يكون دمعَةً صادقة.
وقد يكون دعاءً خفيًا.
وقد يكون ترك معصيةٍ كان الليل يسهّلها.

المقصود أن لا يكون الليل شاهد غيابٍ كامل.
فمن عجز عن قيام الأبدان، فلا يعجز عن قيام القلب.
ومن غلبه النوم، فلا يغلبه أن ينام على توبة.
ومن لم يستطع طول المناجاة، فلا يترك باب الاستغفار.
والله يعلم صدق العاجز كما يعلم اجتهد القادر.

٢٠. خلاصة الفصل

بعد مشهد الخراصين الساهين، تفتح سورة الذاريات مشهد المتقين: ﴿إِنَّ
الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾

ثم تكشف سرهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

ثم تشرح هذا الإحسان في ثلاثة معالم: (كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ)
سرّهم مع الله في الليل.

(وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)
انكسارهم بعد الطاعة.

(وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)
رحمتهم بالخلق في النهار.

وهكذا ترسم الآيات طريقاً كاملاً إلى جناتٍ و عيون:

يقينٌ يوقظ الليل.

وطاعةٌ لا تغتر بنفسها.

واستغفارٌ يغسل القلب.

ومالٌ لا يحبس الرحمة.

وإحسانٌ يجمع السر والعلن.

إن السهر المجهول ليس مجهولاً في الحقيقة.

هو مجهولٌ عند الناس فقط.

أما عند الله، فهو محفوظٌ، مكتوبٌ، مرئيٌ، محبوب.

وقد يكون بين العبد وبين الجنات والعيون ركعاتٌ لا يعلم بها أحد.

واستغفارٌ في سحرٍ هادئ.

وصدقةٌ وصلت إلى محرومٍ لم يستطع السؤال.

وقلبٌ لم يرضَ أن ينام كل الليل بعيداً عن ربه.

هذه الآيات لا تقول لنا: كونوا خارقين.

بل تقول: كونوا صادقين.

اجعلوا لله نصيبًا من ليلكم.

واجعلوا للمغفرة نصيبًا من أسحاركم.

واجعلوا للمحتاجين حقًا في أموالكم.

ثم اتركوا الطريق على الله.

فهو الذي يرى السهر حين يجهله الناس.

وهو الذي يسمع الاستغفار حين يسكن العالم.

وهو الذي يعلم المحروم حين لا يراه أحد.

وهو الذي يعطي في النهاية: **(أَخْذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ)**.

الفصل الخامس

الرزق في السماء لا في يد الخلق

قراءة في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾

بعد أن عرضت السورة مصير الخراصين، ثم كشفت سرّ المتقين في الليل والأسفار والمال، تنتقل بالقلب إلى ميدان آخر من ميادين اليقين:

الأرض.

والنفس.

والسماء.

والرزق.

وكان السورة لا تريد لليقين أن يبقى معلقاً في مشهد الآخرة وحده، بل تريد أن تنزله إلى أكثر مناطق الإنسان حساسية واضطراباً: منطقة الرزق.

فالإنسان قد يؤمن بالجنة والنار نظرياً، لكنه يضطرب عند الرزق. وقد يقرّ بأن الله هو الخالق، ثم ترتجف روحه أمام بابٍ مغلق من أبواب الدنيا. وقد يقول بلسانه: الله الرازق، لكنه يعيش بقلبٍ كأن الناس هم الذين يحملون مفاتيح بقاءه.

لذلك تأتي الآية العجيبة: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

إنها آية تقلب اتجاه النظر كله.

نحن ننظر إلى الأرض بحثاً عن الرزق.

والآية ترفع أبصارنا إلى السماء.

نحن نتوهم أن الرزق في يد المدير، والتاجر، والسوق، والدولة، والراتب،

والعلاقة، والواسطة، والمشروع.

والآية تقول بهدوءٍ مزلزل:

ارفع عينيك.

الرزق ليس هناك حيث تذلل روحك، بل هناك حيث يعلو يقينك.

١. ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾

قبل أن تذكر السورة السماء والرزق، تبدأ بالأرض: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ
لِّلْمُوقِنِينَ﴾

الأرض التي يمشي عليها الإنسان كل يوم ليست صامتة كما يظن.
إنها مملوءة بالآيات.

لكن الآيات لا تتكشف لكل عين، بل للعين التي تحمل قابلية اليقين.

﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾

كأن المشكلة ليست في قلة الآيات، بل في قلة اليقين الذي يقرأها.

كم في الأرض من دلائل:

تربة مية تحيا.

حبة صغيرة تنشق عن شجرة.

ماءٌ واحد يخرج ثمراتٍ مختلفة.

جبلٌ ثابت.

بحرٌ ممتد.

ليلٌ ونهار.

مواسم تتعاقب.

كائنات لا يحصيها الإنسان.

نظامٌ دقيق تحت قدمه، وهو يظن أنه يمشي على ترابٍ عادي.

الأرض ليست أرضاً فقط.

إنها كتابٌ مبسوط.

لكن من يقرأ؟

الذي يريد أن يرى.

الذي لم تبتلع عينه عادةً التكرار.

الذي لا ينظر إلى الأشياء كأنها استهلكت معناها لأنها تتكرر كل يوم.

فكثيرٌ من آيات الله لا تختفي لأنها غامضة، بل لأنها مألوفة.

المألوف قد يكون أعظم حجاب عن الدهشة.

تشرق الشمس كل يوم، فلا نكاد نرتجف.

ينزل المطر، فنحمله إلى لغة الطقس فقط.

تنبت الأرض، فننسى أن الحياة خرجت من موضعٍ كان ساكنًا.

نأكل الثمرة، ولا نتذكر رحلتها من غيب التراب إلى يد الإنسان.

ولهذا قال: ﴿آيَاتٍ لِّلْمُوقِنِينَ﴾

أي أن اليقين لا يولد من خلوّ الأرض من الغموض فحسب، بل من قلبٍ يعرف كيف يحوّل المشهد المعتاد إلى برهان حي.

٢. الأرض مرآة القدرة

الأرض تعلمك أن الله لا يعجزه الإحياء.

أنت ترى البذرة تُدفن، ثم تخرج.

وترى الأرض تجف، ثم تخضر.

وترى الموت الظاهر، ثم تدبّ فيه الحياة.

فلماذا يستبعد الإنسان البعث؟

هذه السورة بدأت بالوعد والدين الواقع، ثم جاءت هنا إلى الأرض، كأنها تقول:

الذي يستغرب قيام الأجساد بعد موتها، فليتأمل الأرض بعد موتها.

أليست القيامة الكبرى مذكّرة بقياماتٍ صغرى حولنا كل عام؟

الأرض كل موسم تدربّ العقل على قبول البعث.

لكن الإنسان يفصل بين المشاهد.

يرى الأرض تحيا، ثم يقول: كيف يحيا الموتى؟

يرى النبات يخرج من ظلمة التراب، ثم يستبعد خروج الإنسان من قبره.

يرى الماء يوقظ عدم الظاهر، ثم ينسى أن القدرة التي تفعل ذلك لا تتجزأ.

المشكلة ليست في القدرة.

المشكلة في الخيال الإيماني حين يضيق.

القرآن يوسّع هذا الخيال بالآيات المبتوثة في الأرض.

يقول للإنسان: لا تجعل القبر آخر ما تتخيله.

انظر إلى الحبة.

انظر إلى الأرض.

انظر إلى الماء.

انظر إلى الحياة وهي تعود من مواضع كنت تحسبها انتهت.

ليس البعث غريباً على ملك الله.

الغريب أن ترى دلائل الإحياء كل يوم، ثم تتكر الإحياء الأكبر.

٣. (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

ثم تقترب الآية أكثر: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

بعد الأرض، النفس.

بعد الآيات الممتدة تحت القدم، الآيات المختبئة داخل الجسد والروح.

كأن السورة تقول: إن لم تكفك الأرض، فانظر إلى نفسك.

أنت نفسك آية.

لست مجرد جسدٍ يتحرك.

ولا كتلة لحمٍ وعظم.

ولا صدفه بيولوجية عابرة.

أنت كتابٌ صغيرٌ فيه من العجائب ما يكفي لقلبٍ يريد أن يبصر.

من نطفةٍ لا تكاد تُرى إلى إنسانٍ يسمع ويبصر ويفكر ويحب ويخاف

ويتذكر ويختار.

من ضعفٍ كاملٍ إلى قيام.
من جهلٍ مطبقٍ إلى عقلٍ يسأل عن الكون.
من صرخة الولادة إلى سؤال المصير.
من قلبٍ ينبض بلا إذنك إلى نفسٍ تخرج بلا استئذانك.

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ)

أي لا تحتاج دائماً إلى رحلة بعيدة كي ترى الآية.
أنت تحملها.

نبضك آية.

تنفسك آية.

ذاكرتك آية.

قدرتك على النطق آية.

خوفك آية.

حنينك آية.

ندمك آية.

بحثك عن المعنى آية.

حتى فقرك الداخلي، ذلك الفراغ الذي لا تملؤه الأشياء كلها، آية تدلك أنك
خُلقت لما هو أعلى من الأشياء.

ثم تأتي الجملة التي تقرر القلب: (أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

لم يقل: أفلا تنظرون؟

بل: تبصرون.

لأن النظر حركة عين.

أما البصر هنا فهو انكشاف معنى.

قد ينظر الإنسان إلى نفسه كل يوم في المرآة، لكنه لا يبصر.

يرى الوجه، ولا يرى الآية.

يرى الشعر والملامح والتعب، ولا يرى أثر الخلق والتدبير والفقر إلى الله.

كم من إنسانٍ يعرف تفاصيل جسده طبيًا، ولا يبصر دلالاته إيمانًا.

وكم من إنسانٍ يعرف أسماء أعضائه، ولا يعرف أن كل عضوٍ شاهدٌ عليه وله.

وكم من إنسانٍ يقرأ عن الدماغ والقلب والخلايا، ثم يخرج بزيادة معلومات لا بزيادة خشوع.

القرآن يريد من المعرفة أن تتحول إلى إِبصار.

٤. من الآيات إلى الرزق

بعد الأرض والنفس، تأتي السماء: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

وهذا انتقال بالغ العمق.

الأرض آيات.

والنفس آيات.

والسماء رزق ووعد.

كأن السورة تبني في القلب سلمًا:

انظر إلى الأرض لتعرف القدرة.

وانظر إلى نفسك لتعرف الصنعة.
ثم انظر إلى السماء لتعرف مصدر الرزق والوعد.
لا تجعل عينيك حبيستين في الأسفل.

فالإنسان حين يقلق على الرزق، يهبط نظره غالبًا.
ينظر إلى الأرض، إلى الأبواب، إلى الوجوه، إلى الأرصدة، إلى الأسواق،
إلى القوى التي يظن أنها تمنحه أو تمنعه.
فتأتي الآية لتردّ بصره إلى فوق: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ)

ليست دعوة إلى ترك السعي.
فالقُرآن لا يربي الكسالى.
لكنها دعوة إلى تحرير القلب من ذلّ الأسباب.

اسع في الأرض، لكن لا تعبد الأرض.
اطرق الأبواب، لكن لا تنسَ صاحب الباب الأعظم.
اعمل، لكن لا تجعل العمل إلهاً.
خطط، لكن لا تتوهم أن الخطة رازقة.
خذ بالأسباب، لكن اعلم أن الأسباب لا تخلق أرزاقها.

الرزق في السماء، والسعي في الأرض.
فإن جعلت السعي بدل السماء، اختلّ قلبك.
وإن تركت السعي بحجة السماء، اختلّ فهمك.
والهداية أن تعمل في الأرض وقلبك معلقُ برب السماء.

٥. لماذا قال: في السماء؟

السماء في القرآن جهة العلو، ومحل نزول الأمر والرزق، ومظهر القهر والرفعة.

وحين يقول: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ)

فهو لا يريد فقط تحديد جهة حسية، بل يريد نقل القلب من التعلق بالسفل إلى التعلق بالعلو.

الرزق الذي تلهث خلفه في الأرض، أصله عند الله.

وما يأتيك من يد الخلق، لم يبدأ من يدهم.

هم أسباب، لا منابع.

قنوات، لا خزائن.

أبواب، لا أرباب.

وهذه الآية إذا استقرت في القلب، صنعت إنساناً عزيزاً.

ليس متكبراً.

ولا متعالياً على الناس.

ولا مهملاً لحقوقهم.

ولكنه لا يذلّ روحه عند أحدٍ من أجل رزق.

لا يبيع دينه ليبقى راتبه.

لا يكذب ليحفظ مكسبه.

لا يخون ليزيد نصيبه.

لا ينافق من يملك منصباً؛ لأنه يعلم أن المنصب نفسه مرزوق لا رازق.

كل إنسانٍ تخافه لأجل رزقك هو فقير مثلك.
وكل بابٍ تظنه مصدر نجاتك هو محتاجٌ إلى من يفتحه.
وكل قوةٍ أرضيةٍ قد تمنح اليوم وتمنع غدًا، لكنها لا تملك أن تزيد في رزقك ذرةً لم يكتبها الله.

الإيمان بهذه الآية لا يلغي التعامل مع الناس، لكنه يمنع تأليهم.

٦. الرزق امتحان يقين

أكثر الناس لا تنكشف حقيقة يقينهم عند الكلام عن العقائد الكبرى، بل عند اختبار الرزق.

عند الراتب.

عند الوظيفة.

عند السوق.

عند الخسارة.

عند الحاجة.

عند المنافسة.

عند تهديد المصالح.

عند خوف الفقر.

هناك يظهر: هل نؤمن فعلاً أن الرزق في السماء؟
أم نؤمن بذلك ما دام الرزق واصلًا من الأرض بسهولة؟

كثيرٌ من القيم تنهار عند باب الرزق؛ لأن الإنسان يكتشف أنه لم يكن يعبد المال، لكنه كان يخاف فقده بطريقةٍ تشبه العبادة.

يخاف أن يقول الحق فينقطع رزقه.
يخاف أن يرفض الحرام فتفوته فرصة.
يخاف أن يستقيم في تجارة فيسبقه الغشاشون.
يخاف أن يحفظ كرامته فيُحرم.
يخاف أن يتوكل فيُخذل.

فتأتي الآية كالعمود في قلبه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾

أي لا تجعل خوفك من الأرض أكبر من ثقتك بالسماء.

ليس معنى ذلك أن لا تتألم عند الضيق.
ولا أن لا تقلق أحياناً؛ فالإنسان بشر.
لكن المعنى أن لا يتحول القلق إلى ربّ يأمرك فتطيعه.
أن لا يسمح خوف الرزق لنفسه أن يأخذ مكان الوحي.
أن لا تقول الحاجة للإنسان: اكذب، فيكذب.
أو: اخضع للباطل، فيخضع.
أو: بع موقفك، فيبيع.

من صدّق أن الرزق في السماء، بقيت روحه أعلى من الصفقة.

٧. وما توعدون

لم تقل الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقط، بل قالت: ﴿وَمَا تُوْعَدُونَ﴾

فجمعت بين الرزق والوعد.

وهذا من أسرار السورة.

في أولها قالت: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾

وهنا تقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

كأنها تربط بين أمرين يكثر فيهما اضطراب الإنسان:
رزقه في الدنيا.

ومصيره في الآخرة.

كلاهما عند الله.

وكلاهما آتٍ بأمر الله.

وكلاهما لا ينبغي أن يُحاكم إلى ظاهرٍ ضيق.

فكما أن رزقك يأتيك من حيث لا تحتسب، كذلك وعد الله يأتي في مواعده
ولو استعجله الخراصون.

وكما أن المطر يتأخر ثم ينزل، كذلك الجزاء قد يتأخر لكنه لا يضيع.
وكما أن رزقك ليس في يد من تراه، كذلك مصيرك ليس بيد من تخافه.

الجمع بين الرزق والوعد يربي القلب تربية عظيمة:
لا تقلق على ما ضمنه الله لك، ولا تغفل عما أمرك بالاستعداد له.

الرزق مضمون من جهة الله، لا من جهة كسل الإنسان.
والآخرة موعودة، لا من جهة التمني، بل من جهة العمل.

فمن اختل فهمه، قد يفعل العكس:

ينشغل برزقٍ مضمون أكثر من انشغاله بوعدٍ محتوم.
يفني عمره في طلب ما كُتب له، ويقصر في الاستعداد لما سيُسأل عنه.

والآية تعيد التوازن:

رزقك عند الله، فلا تذلل.

ووعدك عند الله، فلا تغفل.

٨. الرزق ليس مالاً فقط

حين نقرأ كلمة الرزق، يذهب الذهن غالباً إلى المال.

والمال رزق، لكنه ليس كل الرزق.

الرزق قد يكون إيماناً يثبتك.

أو فهماً يفتح لك معنى.

أو زوجاً صالحاً.

أو ولداً باراً.

أو صديقاً صادقاً.

أو سترًا من الله.

أو صحةً في البدن.

أو طمأنينةً في القلب.

أو قدرةً على الصبر.

أو حباً للقرآن.

أو دمةً في السحر.

أو نجاةً من فتنة.

أو انصراف شرٍّ لم تعلم أنه كان يقترب.

من ضيق الرزق في المال، عاش فقيرًا ولو كثرت أرقامه.
ومن وسّع معنى الرزق كما وسّعه الوحي، رأى نعم الله محيطَةً به من
جهاتٍ كثيرة.

قد يُمنع الإنسان مَالًا، ويُرزق يقينًا يحميه من الانهيار.
وقد يُعطى مَالًا، ويُحرم السكينة، فيكون عطاؤه ابتلاءً لا راحة.
وقد يفتح الله عليه باب فهمٍ في كتابه، فيكون ذلك أعظم من أبواب الدنيا.
وقد يصرف عنه شهرةً كانت ستفسده، فيظن المنع حرمانًا، وهو في الحقيقة
رزق نجاة.

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ)

أي كل ما تقوم به حياتك حقًا، ظاهره وباطنه، مادته ومعناه، يأتي من
خزائن الله.

ولهذا كان من الفقر أن لا يرى الإنسان من الرزق إلا ما يدخل جيبه.
وأشد منه فقرًا أن يملك الجيب ويفقد القلب.

٩. الرزق والكرامة

هذه الآية تصنع كرامة داخلية.

فالإنسان حين ينسى أن رزقه في السماء، قد يضع كرامته في يد من يظن
أنه يملك رزقه.

يمدح من لا يستحق المدح.
يسكت عن باطلٍ لا يجوز السكوت عنه.

يبتسم في وجه إهانةٍ لا ينبغي قبولها.

ينافق.

يبرر.

يبيع.

يصبح عبدًا للمصدر الظاهر للرزق.

لكن المؤمن حين يسمع: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾

يتذكر أن الكرامة نفسها رزق.

وأن الرزق الذي يأتي بثمن الذل ليس فتحًا كاملاً، بل قد يكون امتحانًا خاسرًا.

وأن الله قادر أن يغلق بابًا ويفتح بابًا.

وأن ما عند الناس ينفد، وما عند الله باق.

ليس معنى ذلك أن يكون الإنسان فظًا، ولا أن يتكبر على أصحاب الفضل، ولا أن يستخف بأسباب المعاش.

بل يعمل بأدب، ويشكر الناس، ويحفظ الحقوق، لكنه لا يجعلهم أربابًا صغارًا.

الفرق دقيق:

تشكر السبب، ولا تعبد.

تحترم الباب، ولا تنسى الفتاح.

تسعى في الأرض، ولا تنزل بقلبك من السماء.

١٠. حين يبطئ الرزق

من أصعب الاختبارات أن يبطئ الرزق.

هنا لا يكون الدرس في أصل الإيمان بالرازق فقط، بل في الصبر على توقيت الرازق.

فالإنسان لا يريد الرزق فحسب، بل يريده في الموعد الذي يراه مناسباً. يريد الفتح حين يضيق صدره.

والفرج حين تنتهي قدرته على الاحتمال. والسعة حين يطول عليه الانتظار.

لكن الله يربي عبده أحياناً بتأخير ما يحب.

لا لأنه نسيه.

ولا لأنه أهمله.

بل لأن الرزق ليس مألأ ينزل فقط، بل تربية تصاحبه.

قد يؤخر الله عنك باباً ليكسر فيك تعلقاً مريضاً.

وقد يمنعك شيئاً لأنك لو أخذته الآن أخذته بقلب غير مستعد.

وقد يطيل الطريق لتعرف نفسك، وتعرف الناس، وتعرف ربك.

وقد يذيقك الحاجة حتى لا تحتقر محتاجاً بعد الغنى.

وقد يجعلك تمرّ بضيقٍ ليخرج من قلبك أو هام القوة.

ليس كل تأخير عقوبة.

بعض التأخير عناية شاقة.

والآية في كل هذا تقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾

أي أنه لم يخرج من ملك الله حين تأخر.

ولم يسقط من علمه حين ضاق.

ولم ينتقل إلى يد غيره حين امتنعت الأسباب.

الرزق في السماء، لكن له ميعاد في الأرض.

والمؤمن لا يعرف كل المواعيد، لكنه يعرف صاحبها.

١١. الرزق بين السعي والتوكل

لا يصح أن نفهم الآية فهمًا كسولاً.

فالذي يقول: رزقي في السماء، ثم يترك العمل، لم يفهم القرآن.

لأن القرآن الذي قال: **(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ)** هو القرآن الذي أمر بالسعي،

والمشي في مناكب الأرض، والأخذ بالأسباب.

التوكل ليس ترك السبب.

التوكل أن تأخذ السبب وأنت تعلم أنه لا يستقل بالنتيجة.

تزرع، لكن لا تعبد الزرع.

تتاجر، لكن لا تعبد التجارة.

تتعلم، لكن لا تعبد الشهادة.

تخطط، لكن لا تعبد الخطة.

تسافر، لكن لا تعبد الطريق.

الكسل يقول: لن أعمل لأن الله رازق.

والهلع يقول: إن لم أفعل كل شيء هلك.

أما الإيمان فيقول: سأعمل لأن الله أمرني بالسعي، وسأطمئن لأن الله وحده يملك الرزق.

وهذا التوازن من أصعب مقامات القلب.

فكثيرون إذا أخذوا بالأسباب، غرقوا فيها.

وإذا تحدثوا عن التوكل، عطّلوا الأسباب.

أما القرآن فيربي إنساناً يسعى بجسده، ويتوكل بقلبه.

قدماه في الأرض.

وقلبه في السماء.

١٢. (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

ثم تأتي الآية التي تزيد المعنى تأكيداً: (فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنْكُمْ تُنطِفُونَ)

هنا قسمٌ جديد.

السورة بدأت بقسمٍ كوني: (وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا)

وهنا تقسم برّب السماء والأرض.

وكان قضية الرزق والوعد من أكثر ما يحتاج قلب الإنسان إلى تأكيد.

لأنه لا يضطرب في شيء كما يضطرب في رزقه ومصيره.

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

إنه ليس رب السماء وحدها، ولا رب الأرض وحدها.
بل رب الجهة التي فيها رزقكم، ورب الجهة التي فيها سعيكم.
رب العلو والسفل.
رب الغيب والشهادة.
رب الأمر والسبب.
رب ما لا تملكون وما تظنون أنكم تملكون.

ثم يقول: ﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾

والضمير يعود على ما تقدم من الرزق والوعد، أو على مضمون الخبر كله.

إنه حق.

ليس تطييباً نفسياً.

ولا استعارةً روحية.

ولا عبارةً للتهئية.

بل حق.

١٣. ﴿مَثَلُ مَا أَنْكُم تَنْطِقُونَ﴾

ثم تأتي العبارة التي تكاد تخجل الإنسان من قلقه: ﴿مَثَلُ مَا أَنْكُم تَنْطِقُونَ﴾

أي كما أن نطقكم حقيقة لا تشكون فيها، فكذاك هذا الخبر حق.

وهذا تشبيه عجيب؛ لأنه يردّ الإنسان إلى أقرب يقين يومي عنده: نطقه.

أنت لا تحتاج إلى برهانٍ طويل لتعرف أنك تتنطق.

لا تحتاج أن يثبت لك أحد أنك تتكلم.

إنه أمر حاضر منك، قريب إليك، لا ترتاب فيه.

فكذلك ينبغي أن يكون يقينك بخبر الله.

ما أرحم هذا التشبيه، وما أشده في الوقت نفسه.

كأنه يقول: لماذا تجعلون رزق الله ووعده في منطقة التردد، وأنتم لا

تترددون في أصواتكم الخارجة من أفواهكم؟

أ يكون نطقكم أوثق عندكم من خبر ربكم؟

هنا يبلغ التوبيخ التربوي غايته.

المؤمن حين يقرأ الآية، يستحي.

يستحي من مراتٍ كثيرة صدّق فيها خوفه أكثر مما صدّق ربه.

ومن ساعاتٍ ظن فيها أن باب البشر أقوى من باب الله.

ومن مواقف ارتبك فيها أمام الرزق كأن السماء أُغلقت.

ومن أيامٍ نسي فيها أن الوعد حق مثل نطقه.

(مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ)

أي إن القضية ليست بعيدة عن اليقين.

بل ينبغي أن تكون في بداهة اليقين.

١٤. الرزق والوعد في حياة الكاتب والمصلح

ومن أطف ما تكشفه هذه الآية لأهل الفكر والدعوة والكتابة أن الرزق ليس مالا وحده، بل يدخل فيه رزق الأثر والقبول والفتح والفهم.

الكاتب قد يقلق على انتشار كلمته.
والداعية قد يقلق على قبول دعوته.
والمصلح قد يقلق من قلة الناصر.
وطالب العلم قد يقلق من بطء الفهم.
وصاحب المشروع قد يقلق من ضيق الإمكانيات.

لكن الآية تقول للجميع: **(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ)**

حتى أثر الكلمة رزق.
وحتى قارئ واحد يفتح الله قلبه رزق.
وحتى معنى يولد في صدرك بعد طول عسر رزق.
وحتى صرفك عن باب شهرة تفسد نيتك رزق.
وحتى بقاء عملك قليلا لكنه مبارك رزق.

لا تذلل الكلمة للناس طلبا للانتشار.
ولا تجعل الفكرة عبدة للتصفيق.
ولا تكتب بما يرضي السوق إذا كان يسخط الحق.
ولا تستبطن الفتح فتشوه الرسالة.

كما أن المال من السماء، فالأثر من السماء.
تكتب في الأرض، لكن القبول ينزل من عند الله.

تزرع المعنى، لكن الإنبات ليس بيدك.
تجتهد في البيان، لكن الهداية ليست ملك قلمك.

وهذا لا يضعف العمل، بل يطهره.
يجعلك تبذل أقصى ما تستطيع، ثم لا تعبد النتيجة.

١٥. أثر الآية في القلب

إذا استقرت هذه الآية في القلب، صنعت خمسة آثار كبرى.

الأول: الطمأنينة.

لأن الرزق ليس متروكاً لفوضى الناس.

الثاني: العزة.

لأن من كان رزقه في السماء لا يبيع كرامته لأهل الأرض.

الثالث: السعي النظيف.

لأن المؤمن يعمل، لكنه لا يستبيح الحرام بحجة الحاجة.

الرابع: الصبر.

لأن تأخر الرزق لا يعني غياب الرازق.

الخامس: الاستعداد للآخرة.

لأن الآية جمعت بين الرزق وما يوعدون، فلا يبتلع طلب المعاش حقيقة المعاد.

بهذه الآثار يتحول الإيمان من فكرة إلى شخصية.

ترى المؤمن متوازنًا.
لا هو كسولٌ باسم التوكل.
ولا هو مذعورٌ باسم المسؤولية.
لا يحتقر الأسباب.
ولا يعبدها.
لا يستغني عن الناس تكبرًا.
ولا يذوب فيهم خوفًا.
لا يزهّد في العمل.
ولا ينسى أن البركة من الله.

١٦. بين آية الرزق وآية العبادة

وسياتي في آخر السورة: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

وهنا تظهر وحدة السورة مرة أخرى.

في هذا الموضع تقول: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾

وفي آخرها تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾

وبينهما تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

أي أن الإنسان إذا فهم الرزق فهمًا صحيحًا، تحرر للعبادة.

فكثيرٌ من الناس لم يتركوا العبادة إنكارًا لها، بل لأن الرزق استعبدتهم.
أكل قلوبهم القلق.

واستنفد أعمارهم الركض.
وصارت الحاجة تسوقهم من بابٍ إلى بابٍ حتى لم يبقَ فيهم فراغٌ لله.

فتأتي السورة لتقول:
الرازق هو الله، فاعبدوه.
رزقكم في السماء، فلا تذلوا للأرض.
ما خلقتم لتطعموا الله، بل خلقكم الله لتعبدوه، وهو الذي يطعمكم.
هذه من أعظم معاني التحرير في القرآن.

العبادة لا تستقيم في قلبٍ يظن أن رزقه بيد غير الله.
لأنه سيعبد من يخاف أن يقطع عنه رزقه.
ومن هنا كان توحيد الرزق جزءاً من توحيد العبادة.

١٧. خلاصة الفصل

تأتي آيات الأرض والنفس والسماء في سورة الذاريات لتبني يقيناً شاملاً.

(وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ)

تعيد الإنسان إلى قراءة العالم بوصفه كتاباً مفتوحاً للقدر.

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)

ترده إلى ذاته، ليكتشف أن أقرب الأشياء إليه مملوءة بالدلالة.

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

ترفع قلبه من ذل الأرض إلى عزة التعلق بالله.

(فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ)

تؤكد له أن هذا الحق ليس أقل يقينًا من نطقه الذي لا يشك فيه.

وهكذا يتربى المؤمن على معنى عظيم:

اسع في الأرض، لكن لا تسجد بقلبك لها.

انظر في نفسك، لكن لا تغتر بها.

ارفع بصرك إلى السماء، لكن لا تترك واجبك في الأرض.

خذ بالأسباب، لكن لا تجعلها أربابًا.

اطلب رزقك بكرامة، لأن الرزق عند الله.

واستعد لوعدك بجدية، لأن الوعد عند الله.

إن الرزق إذا أُسيء فهمه، صار صنمًا خفيًا.

وإذا فهم في ضوء القرآن، صار بابًا إلى التوحيد.

فالذي يوقن أن رزقه في السماء، يمشي في الأرض خفيف الروح.

لا ينهشه الهلع.

ولا يشتري الدنيا بدينه.

ولا يبيع كرامته عند أبواب الخلق.

ولا ينام عن وعد الآخرة بسبب قلق المعاش.

إنه يعمل، لكن قلبه لا يركع إلا لله.

يسعى، لكن يقينه أعلى من الطريق.

يطلب، لكنه يعلم أن العطاء من فوق.

وهذه هي خلاصة الآية في روح المؤمن: الرزق ينزل من السماء، والسعي يكون في الأرض، والقلب لا ينبغي أن يسكن إلا عند الله.

الفصل السادس

ضيف إبراهيم والخوف النبيل

قراءة في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾

بعد أن رفعت السورة نظر الإنسان إلى الأرض والنفس والسماء والرزق، تنتقل فجأة إلى بيت.

لا إلى قصر ملك.

ولا إلى ساحة حرب.

ولا إلى مدينة صاحبة.

بل إلى بيت نبي كريم، يدخل عليه ضيوف لا يعرف حقيقتهم أول الأمر:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۖ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ
قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۖ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۖ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۖ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ
ۖ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صِرَّةٍ فَصَكَتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۖ قَالُوا
كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

هذا الانتقال ليس عابراً.

فالسورة التي قالت قبل قليل: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

تأتي الآن بمشهدٍ تطبيقي:

بشارةٌ تنزل من السماء إلى بيتٍ ظن أهله أن أسباب الولد قد انتهت.

امرأة عجوز.

عقيم.

وزوج كبير.

والعادة البشرية تقول: لا ولد.

لكن الوعد الإلهي يقول: غلام عليم.

هنا نرى كيف يدخل الغيب بيت الإنسان.

وكيف يجيء الرزق من جهةٍ لم تكن داخلةً في حسابات الجسد ولا العمر

ولا العادة.

وكيف تكون السماء أقرب إلى بيت المؤمن من ظنونه كلها.

١. ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ﴾

تبدأ القصة بسؤال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾

والقرآن حين يقول: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾، لا يريد مجرد الاستفهام عن وصول الخبر،

بل يفتح باب الإنصات.

كأن المعنى: قف عند هذا الحديث، فإن فيه ما يستحق أن يُتلقى بوعي.

إنه ليس خبر ضيافة فقط.

بل خبر يقين.

خبر كرم.

خبر خوف.

خبر بشارة.

خبر بيت دخلته الملائكة بأمر الله.

خبر رزق جاء بعد انقطاع الأسباب.

وخبر قوم آخرين ستنزل بهم العقوبة بعد قليل.

فالضيف هنا ليسوا ضيوف طعام فحسب.

إنهم حملة أمر.

يحملون إلى إبراهيم بشارة، ويحملون إلى قوم لوط عذابًا.

وهذا من بديع المشهد:

الملائكة أنفسهم يدخلون بيت الخليل بالبشرى، ثم يمضون إلى قوم آخرين بالعقوبة.

الرسالة واحدة من جهة الأمر الإلهي، لكن أثرها يختلف باختلاف البيوت والقلوب.

بيت يستقبل الملائكة بالسلام والكرم، فيُبشّر.

وقومٌ يستقبلون الفاحشة والاستهتار، فيُهلكون.

ما أعظم الفرق بين بيت صالح وقوم فاسدين، حين ينزل الأمر من السماء.

٢. ضيف مكرمون

قال تعالى: ﴿ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾

وصفهم بالمكرمين قبل أن يذكر تفاصيل الضيافة.
وقد يكون في ذلك إكرامهم عند الله؛ لأنهم ملائكة.
وفيه أيضًا إشارة إلى ما لقوه من إكرام إبراهيم عليه السلام.
والتعبير نفسه يفتح بابًا إلى خلقٍ عظيم: الكرم.

إبراهيم عليه السلام لم يكن كريم الاعتقاد فقط، بل كريم السلوك.
لم يكن توحيده معنى داخليًا مجردًا، بل كان يظهر في بيته وطعامه
واستقباله للناس.

وهذا مهم.

فالإيمان العظيم لا يظل فكرةً عاليةً في الذهن.
ينزل إلى المائدة.
إلى الباب.

إلى طريقة استقبال الضيف.
إلى سخاء اليد.
إلى طلاقة الوجه.
إلى سرعة الخدمة.

هناك من يظن أن المعاني الكبرى تنفصل عن الأخلاق اليومية.
لكن القرآن يعلمنا أن بيت النبي جزء من دعوته.
وأن المائدة قد تشهد على التوحيد كما تشهد المحراب.
وأن الكرم ليس هامشًا اجتماعيًا، بل ثمرة نفسٍ عرفت ربها الكريم.

إبراهيم الذي حطم الأصنام في قومه، هو نفسه الذي أسرع إلى أهله فجاء بعجل سمين.

القوة في الحق لم تجعله جافاً.
والبراءة من الشرك لم تجعله قاسياً.
والنبوة لم ترفعه عن خدمة الضيف.

هذا اكتمال الشخصية النبوية:

عقيدة صافية.
وقلب رحيم.
ويد كريمة.
وموقف حازم.
وبيت مفتوح للخير.

٣. السلام الأول

قال تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾

بدأ اللقاء بالسلام.

السلام ليس مجرد تحية.

إنه إعلان أمان.

إزالة توتر أول.

فتح لباب العلاقة على معنى الطمأنينة.

لكن إبراهيم عليه السلام، مع رقيه وكرمه، لم يبلغ فطنته.

قال في نفسه أو في تقديره: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾.

أي أنه جمع بين الأدب والانتباه.
لم يسئ استقبالهم، ولم يطفئ حسّ الحذر.
وهذا خلقٌ دقيق.

ليست الطيبة أن يكون الإنسان ساذجًا.
وليست الفطنة أن يكون سيئ الظن بكل أحد.
النبي الكريم يستقبل بسلام، ويكرم، لكنه يلحظ أن الضيوف غير معروفين.

في الحياة يحتاج الإنسان إلى هذا التوازن:
قلبٌ لا يفسد بالريية.
وعقلٌ لا ينام عن الفطنة.
يدٌ كريمة.
وعينٌ بصيرة.

إبراهيم لم يقل: قوم منكرون ثم يغلق الباب.
ولم يقل: سلام ثم ينام عن الملاحظة.
بل أكرم مع انتباهه.
وهذا من نبل النفوس الكبيرة.

٤. الكرم الصامت: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ﴾

ثم يقول الله: ﴿فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾

كلمة ﴿فَرَاغَ﴾ تحمل معنى الذهاب بخفة وخفاء.
لم يكثر الكلام.

لم يسألهم: هل تريدون طعامًا؟

لم يجعل الضيافة موضع مساومة لفظية.

ذهب بهدوء، وعاد بعتاء.

وهذا من أرقى آداب الكرم.

الكرم الحقيقي لا يخرج المحتاج أو الضيف بالسؤال الطويل.

لا يقول له: هل تريد؟ كم تريد؟ لماذا تحتاج؟

بل يفهم ويقضي ويدنو بالعتاء دون ضجيج.

إبراهيم لم يأت بأي طعام، بل: ﴿بِعَجَلٍ سَمِينٍ﴾

أي أكرم الموجود.

الكرم لا يعطي الفائض التافه دائمًا، بل يعطي مما له قيمة.

لا يقدم أدنى ما في البيت، بل ما يليق بكرامة الضيف.

وهنا ينبغي أن نتذكر أن هؤلاء الضيوف لم يكونوا معروفين عنده.

ومع ذلك أكرمهم.

فالكرم عند الأنبياء ليس ردًا على مكانة اجتماعية معلومة، بل سجية تخرج

لأن القلب كريم.

كم من الناس لا يكرمون إلا من ينتظرون منه منفعة.

ولا يبتسمون إلا لمن له جاه.

ولا يفتحون أبوابهم إلا لمن يستطيع أن يردّ الجميل.

أما إبراهيم، فيكرم قومًا منكربين.

وهذا كرمٌ طاهر من الحسابات الصغيرة.

٥. قربان الضيافة

قال تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

لم يضع الطعام بعيداً.

بل قرّبه إليهم.

وهذه لمسة دقيقة.

فالكرم ليس في نوع الطعام فقط، بل في طريقة تقديمه.

قد يعطي الإنسان عطاءً كثيراً بروح باردة، فيصير ثقيلًا.

وقد يعطي قليلاً بروح كريمة، فيصير واسعاً.

إبراهيم قرّب الطعام.

جعلهم يشعرون أن الطعام لهم، لا أن عليهم أن يستأذنوا فيه.

ثم قال برفق: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

سؤال لا يحمل عتاباً قاسياً، بل استغراب المضيف الذي يرى الطعام

حاضراً واليد لا تمتد إليه.

ومن هنا بدأ الخوف.

فالعادة أن الضيف إذا قُدّم له الطعام، أكل.

فإذا امتنع قومٌ غرباء عن الطعام، تحركت الريبة.

٦. الخوف النبيل

قال تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾

الخوف هنا ليس جبناً.

ولا ضعف يقين.

ولا نقصاً في مقام الخليل.

بل هو خوف بشري نبيل، تفرضه الملابسات.

ضيوف غير معروفين.

دخلوا فجأة.

لا يأكلون.

والامتناع عن الطعام في عادات الناس قد يكون علامة شر.

فخاف إبراهيم.

والقرآن لا يخفي هذا الخوف؛ لأنه يريد أن يقدم الأنبياء في بشريتهم

الكاملة، لا في صورة جامدة لا تعرف الانفعال.

النبي يخاف، لكنه لا ينهار.

يتوجس، لكنه لا يسيء.

يتأثر، لكنه يبقى كريماً.

يشعر بالخطر، لكنه لا يفقد أدبه.

هذا مهم جداً.

فالإيمان لا يعني أن لا يخاف الإنسان أبدًا.
بل أن لا يكون الخوف سيدًا على قلبه.
أن يبقى الخوف داخل حدود البشرية، لا أن يتحول إلى معبودٍ يقرر بدل
الوحي.

إبراهيم خاف.
وموسى خاف.
ومريم خافت.
وأم موسى خافت.
والنبي ﷺ في مواقف كثيرة أخذ بالأسباب.

الخوف ليس عيبًا في ذاته.
العيب أن يقودك الخوف إلى معصية، أو سوء ظن بالله، أو ترك واجب، أو
خيانة مبدأ.

الخوف النبيل هو الذي يكشف بشرية الإنسان دون أن يسقط مقامه.

٧. ﴿لَا تَخَفْ﴾

قالوا: ﴿لَا تَخَفْ﴾

هذه الكلمة هي أول كشف للغيب في المشهد.

الملائكة عرفوا ما أوجس في نفسه.

أو فهموا أثره.

فطمأنوه مباشرة.

(لَا تَخَفْ)

ما أرحم أن تأتي الطمأنة من جهة الغيب حين يبلغ الخوف موضعه.
وما أطف أن يكون أول خطابهم بعد امتناعهم عن الطعام إزالة الخوف، لا
شرح المهمة.

كأنهم يقولون: قبل البشارة، ينبغي أن يطمئن القلب.

وهكذا يفعل لطف الله بعباده.

قد تدخل على الإنسان واقعة لا يفهمها، فيخاف.

ثم يكشف الله له شيئاً من معناها.

قد يكون ما أفزعه أول الأمر باباً إلى بشارة.

قد يدخل عليه الأمر غريباً، ثم يتبين أنه رحمة متخفية.

كم من خوفٍ كان مقدمة خبرٍ جميل.

وكم من ضيفٍ من أقدار الله دخل القلب بثياب القلق، ثم خرج منه باسم
البشارة.

وكم من واقعةٍ امتنع فيها الشيء المعتاد، فظن الإنسان الشر، وكان الله يفتح
بها طريقاً لم يخطر له.

إبراهيم خاف لأنهم لم يأكلوا.

لكن الذين لم يأكلوا لم يكونوا خطراً، بل كانوا رسل بشرى.

ليست كل علامة تفهمها النفس على أنها تهديد تكون تهديداً في علم الله.
أحياناً يكون القلق نتيجة قراءة ناقصة للمشهد.

٨. البشارة بعد الخوف

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾

بعد الخوف جاءت البشارة.

وهذا الترتيب يحمل لطفًا عظيمًا:

لا تخف.

ثم أبشر.

كأن القلب لا يتسع للبشارة حتى يزول عنه الفرع.

فالخوف إذا اشتدّ، حجب القدرة على تلقي النعمة.

والطمأنينة تفتح الداخل للعطاء.

﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾

ليست البشارة بولدٍ فقط، بل بولدٍ موصوفٍ بالعلم.

أي أن العطاء ليس مجرد امتداد نسبي، بل امتداد هداية ونبوة ومعنى.

ليس غلامًا عاديًا، بل غلامًا عليمًا.

وهنا يلتقي الرزق بالوعد مرة أخرى.

فالولد رزق.

والعلم رزق.

والبشارة وعد.

وكل ذلك جاء من السماء إلى بيتٍ تجاوزت أسبابه البشرية حدود الإمكان

المعتاد.

هذه البشارة تفسّر الآية السابقة: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

فهذا رزقٌ لم تصنعه الأرض وحدها.

ولا رتبه حساب العمر.

ولا توقعته معادلات الجسد.

بل قاله الله فكان حقًا.

٩. حين تصطدم البشارة بالعادة

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

تأتي زوجة إبراهيم عليه السلام في دهشة ظاهرة.

﴿فِي صَرَّةٍ﴾

أي في صيحة أو صوت دهشة.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾

حركة تعجب وذهول.

ثم قالت: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

كانها تلخص في كلمتين كل الموانع البشرية:

العمر: عجوز.

والطبيعة الخاصة: عقيم.

ليست القضية أن السبب ضعيف فقط، بل كأن الأسباب كلها مغلقة.
السن متقدم، والعقم قديم.
فمن أين يأتي الولد؟

وهنا نرى الصراع بين العادة والوعد.

العادة تقول: لا يمكن.

والوعد يقول: سيكون.

والإنسان حين يسمع وعد الله، كثيرًا ما يقف داخله صوت العادة.
كيف؟

من أين؟

بعد كل هذا؟

وقد مضى العمر؟

وقد أُغلقت الأبواب؟

وقد صارت الطريق مستحيلة؟

لكن وعد الله لا يستمد قوته من قابلية الأسباب وحدها.
إنه يستمد قوته من قائله.

١٠. العجوز العقيم والغلام العليم

ما أبدع التقابل: (عَجُوزٌ عَقِيمٌ)

في مقابل: (غُلَامٌ عَلِيمٌ)

من عجوز إلى غلام.

ومن عقيم إلى ولادة.

ومن انقطاع السبب إلى امتداد العلم.

كأن القرآن يضع الاستحالة البشرية أمام القدرة الإلهية.

العجوز العقيم تقرأ نفسها من جهة الماضي:

أنا هكذا.

العمر مضى.

والرحم لم ينجب.

والعادة لا تسمح.

أما الملائكة فيقرأونها من جهة الأمر الإلهي:

قال ربك.

وهنا يختلف كل شيء.

أنت قد تقرأ نفسك من ماضيك.

من جروحك.

من إخفاقاتك.

من تاريخك الطويل مع العجز.

من الأبواب التي أغلقت.

من التجارب التي قالت لك: لا أمل.

لكن الله لا يُحبس في ماضيك.
ولا تتوقف قدرته عند تاريخ عجزك.
ولا يكون ما ألفته من الحرمان حكمًا نهائيًا على ما يمكن أن يفتحه الله.
ليس معنى ذلك أن كل ما نتمناه سيقع، ولا أن نوظف الآية في أمانى بلا ضابط.
لكن معناها أن العادة ليست ربًّا، وأن الأسباب ليست جدارًا أمام مشيئة الله،
وأن المؤمن لا ينبغي أن يجعل تاريخه أقوى في قلبه من وعد ربه.

١١. (كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ)

جاء الجواب حاسمًا: (قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ)

لم يناقشوها في الطب.
ولم يشرحوا لها إمكانات الجسد.
ولم يقولوا لها: ربما، أو لعل.
بل نقلوا القضية إلى موضعها الحقيقي:

قال ربك.

هذه الجملة وحدها تكفي.

حين يقول الرب، تسقط استحالة العادة.
حين يقول الرب، يصبح العمر تفصيلًا.
حين يقول الرب، لا يعود العقم جدارًا مطلقًا.
حين يقول الرب، لا تسأل القدرة عن الطريق الذي ستسلكه.

(كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ)

أي ليس الأمر قائماً على توقعنا، بل على قوله.

وليس على قدرة الجسد، بل على قدرة الرب.

وليس على منطق العادة، بل على سلطان الأمر.

وهذا لا يعني إلغاء السنن، لكن يعني أن السنن نفسها مخلوقة لله.

هو الذي أجراها، وهو الذي يخرقها متى شاء لحكمة.

فليست السنن مستقلة عنه.

ولا الأسباب تفرض عليه.

الإيمان الصحيح يحترم السنن، لكنه لا يؤلّها.

١٢. الحكيم العليم

ثم قالوا: (إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

خُتِمَت البشارة باسمين جليلين:

الحكيم.

العليم.

لم يقل فقط: إنه القدير، مع أن القدرة ظاهرة في المشهد.

بل قال: (الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ).

لأن القضية ليست قدرة مجردة، بل قدرة جارية على علم وحكمة.

العليم: يعلم حالك، وعمرك، وماضيك، وعقمك، وخوفك، ودهشتك، وما يصلح لك، ومتى يصلح.

الحكيم: يضع العطاء في موضعه، ويؤخر لحكمة، ويقدم لحكمة، ويفتح لحكمة، ويمنع لحكمة.

فالبشارة لم تأت عبثاً ولا صدفة.

جاءت في الوقت الذي أراده الله، وبالطريقة التي أرادها الله، وللمعنى الذي أراده الله.

وهذا يربّي القلب عند العطاء والمنع معاً.

إذا أعطى، فهو الحكيم العليم.

وإذا منع، فهو الحكيم العليم.

وإذا أخّر، فهو الحكيم العليم.

وإذا فاجأك بما لم تتوقع، فهو الحكيم العليم.

المشكلة أن الإنسان يريد من علم الله أن يوافق استعجاله، ومن حكمة الله أن تشرح نفسها له فوراً.

لكن العبد لا يكون عبداً حقاً حتى يثق بالحكمة قبل أن يفهم تفاصيلها كلها.

١٣. إبراهيم بين الكرم والخوف واليقين

في هذا المشهد تتجلى ملامح إبراهيم عليه السلام بصورة شديدة الجمال.

كريم مع الغرباء.

فطن لا يغفل.

بشريُّ يخاف.

مطمئنٌ حين يأتيه الخبر.

بيته مفتوحٌ للضيف.

وقلبه مفتوحٌ للوحي.

هذه ليست قصةً عن بشارة فقط، بل عن نموذج إنساني نبوي.

القرآن لا يقدم إبراهيم هنا في لحظة مجادلة قومه، ولا في لحظة إلقاءه في

النار، ولا في مقام بناء البيت، بل في لحظة بيتية هادئة.

ضيفٌ يدخل.

طعامٌ يقدم.

خوفٌ يقع.

بشارةٌ تأتي.

كأن السورة تقول إن اليقين لا يظهر في المواقف الكبرى وحدها.

بل يظهر في تفاصيل البيت أيضًا.

في استقبال الضيف.

في سرعة الكرم.

في أدب السؤال.

في التعامل مع الخوف.

في تصديق البشارة.

في ترك العادة أمام قول الله.

كم نحن بحاجة إلى هذا المعنى.

فبعض الناس يريد أن يكون إيمانه عظيمًا في القضايا الكبرى، لكنه لا يترجم ذلك في بيته.

وفي طعامه.

وفي كرمه.

وفي خوفه.

وفي ردوده اليومية.

والقرآن يربّي الإنسان كاملاً، لا صورة خطابية منه فقط.

١٤. البشارة التي تأتي متكررة

الملائكة دخلوا ضيوفاً منكربين.

ثم تبين أنهم حملة بشرى.

وهذا من سنن الله في بعض أقداره:

قد تأتي البشارة متكررة في صورة قلق.

وقد يدخل الخير من بابٍ لا يشبه الخير أول الأمر.

وقد يبدأ الأمر بغموضٍ يوجس منه القلب، ثم ينكشف عن عطاء.

ليس كل مجهولٍ شرّاً.

وليست كل دهشةٍ نذيراً.

وليست كل واقعةٍ تتركك خارجةً عن الرحمة.

إبراهيم رأى ضيوفاً لا يأكلون، فأوجس خيفة.

ثم قالوا: لا تخف، وبشروه.

كم يحتاج الإنسان أن يتعلم ألا يحكم على الأقدار من لحظتها الأولى.
فالقدر قد يبدأ بسؤالٍ ثقيل، ثم ينتهي بجوابٍ جميل.
وقد يبدأ بانقباض، ثم يكشف الله عنه سعة.
وقد يبدأ بخوف، ثم يخرج منه غلامٍ عليم.

لكن هذا لا يُفهم إلا في ضوء الثقة بالله.
أما القلب الغافل، فيقرأ كل مجهول بوصفه تهديدًا.
والقلب المؤمن يحذر، لكنه لا يقطع الأمل عن لطف الله.

١٥. من البشارة إلى المهمة الأخرى

القصة لا تقف عند البشارة، بل ينتقل إبراهيم إلى السؤال عن مهمة الضيوف:

(قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٢﴾
لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٤﴾)

هنا يتغير وجه المشهد.

الضيوف المكرمون ليسوا قادمين للبشارة وحدها.

هناك مهمة أخرى: إهلاك قوم مجرمين.

وهذا الانتقال شديد الأثر.

في بيت إبراهيم: بشرى.

وفي طريقهم إلى قوم لوط: عذاب.

الأمر نفسه ينزل من عند الله، لكنه يحمل رحمةً لأهل الإيمان، ونقمةً على أهل الإجرام.

وهنا تظهر مركزية الأخلاق في السورة.

ليست القضية أن الله يرزق فقط.

ولا أنه يبشر فقط.

بل كذلك يحاسب ويعاقب.

فالوعد صادق، والدين واقع، ومصارع الأمم ليست حكايات تاريخية، بل شواهد على أن الإجرام له نهاية.

١٦. (فَمَا خَطْبُكُمْ)

سؤال إبراهيم: (فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ)

يكشف أنه أدرك أنهم ليسوا ضيوفاً عاديين.

بعد أن طمأنوه وبشروه، فهم أن وراء حضورهم أمراً.

والخطب هو الأمر العظيم.

كأن الخليل أحس أن مجيء الملائكة ليس لمجرد البشارة، بل لمهمة كبرى.

وهكذا أصحاب القلوب الحية لا يقفون عند ظاهر النعمة وحدها، بل يسألون

عن معنى الأمر.

هناك من إذا جاءت البشارة، انشغل بها عن كل شيء.

أما إبراهيم، فبعد أن سمع البشارة، سأل عن الخطب.

لأن قلب النبي ليس قلباً فردياً محضاً.
إنه قلبٌ مشغول بمصائر الناس أيضاً.

١٧. قوم مجرمون

قالوا: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾

لم يقل: إلى قوم مخطئين.

ولا: إلى قوم ضعفاء.

بل: ﴿مُجْرِمِينَ﴾.

الإجرام هنا ليس زلةً عابرة.

إنه نمطٌ مستقر من الفساد والعدوان وانتهاك الفطرة والتمرد على إنذار
الرسل.

ثم قالوا: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿١٧﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾

العذاب ليس عشوائياً.

الحجارة مسومة.

معلمة.

محددة.

عند ربك.

للمسرفين.

أي أن العقوبة ليست فوضى غضب، بل قضاء محكم.

تعرف طريقها.

وتصيب موضعها.

وتنزل على من استحقها.

وهذا من تمام العدل.

فالذي يقرأ عذاب الأمم بسطحية، قد يراه قسوة.

لكن القرآن يربطه بالإجرام والإسراف.

أي أن العقوبة جاءت بعد تمادٍ، وبعد إنذار، وبعد بلوغ الفساد حدًا لم يعد معه البقاء رحمةً للناس.

١٨. الإسراف بوصفه تجاوزًا للحد

وصفهم بـ: (المُسْرِفِينَ)

الإسراف ليس في المال فقط.

هو تجاوز الحد في كل شيء.

هناك إسراف في الشهوة.

إسراف في الظلم.

إسراف في التمرد.

إسراف في الاستهانة بالحق.

إسراف في إفساد الفطرة.

إسراف في الاستجابة للهوى حتى يصير الإنسان عبدًا له.

وقوم لوط بلغوا من الإسراف أن انقلبت الفطرة، وصار المنكر نظامًا

اجتماعيًا، وصار الطهر غريبًا.

حين يتحول الذنب من زلة إلى ثقافة، ومن خطيئة إلى هوية، ومن ضعف إلى تحدٍّ، فإن الخطر يتجاوز صاحبه إلى المجتمع كله. وهنا تأتي سنن الله الحاسمة.

فالقرآن لا يواجه الخطيئة الفردية المنكسرة كما يواجه الإجرام الجماعي المتبجح.

من أذنب وهو منكسر، فباب التوبة مفتوح. ومن جعل الذنب رايةً وحارب بها الطهر، فقد انتقل إلى مقام آخر من الخطر.

١٩. نجاه البيت المؤمن

ثم يقول تعالى: (فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

آيتان قصيرتان، لكنهما تحملان المأ كبيراً.

مدينة كاملة، أو قرى، لا يوجد فيها غير بيت من المسلمين.

يا لنقل هذه الوحدة.

بيت واحد يحمل الإيمان وسط محيط فاسد.

بيت واحد ينجو، لأن داخله بقية نور.

بيت واحد يشهد أن الحق قد يعيش قليل العدد، لكنه لا يصير باطلاً لقلة أهله.

(فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

هذه الآية تصلح عزاءً لكل غريبٍ بدينه.
لكل بيتٍ يحاول أن يحفظ طهره وسط فسادٍ عام.
لكل أسرة تبدو غريبة لأنها لم تستسلم لذوق المجتمع.
لكل مؤمنٍ يشعر أن صوته قليل، وأن الفساد أوسع من قدرته.
لا تحتقر البيت الواحد.

قد تكون النجاة معلقة ببيت.
وقد يحفظ الله في مدينةٍ فاسدة بيتًا واحدًا لأنه أسلم وجهه له.
وقد يكون البيت الصغير في حساب الناس أعظم عند الله من مجتمعٍ كاملٍ إذا فسد.

والآية كذلك مخيفة.

إلى أي حد قد يفسد مجتمعٌ حتى لا يبقى فيه إلا بيتٌ واحد؟
وإلى أي حد قد يصبح المعروف غريبًا والمنكر مألوفًا؟
وإلى أي حد يمكن أن تتراكم الغمرة حتى لا تجد الملائكة إلا موضعًا واحدًا للإيمان؟

٢٠. البيت المسلم وسط الخراب

القرآن هنا لا يذكر البيت عرضًا.
البيت في مشروع الإيمان ليس تفصيلًا ثانويًا.
بدأ المشهد ببيت إبراهيم، وانتهى ببيت من المسلمين في قوم لوط.
بيتٌ يستقبل الملائكة بالكرم، وبيتٌ ينجو من العذاب بالإسلام.

كأن السورة تقول:

البيوت ليست مجرد مساكن.

إنها مواقع في معركة اليقين أو الغفلة.

هناك بيتٌ تنزل عليه البشرى.

وهناك بيتٌ يخرج من الهلاك.

وهناك بيوتٌ تغرق مع مجتمعاتها لأنها فقدت معنى الطهر.

كم يحتاج المؤمن أن ينظر إلى بيته بهذه العين.

هل البيت موضع ذكر؟

هل هو موضع رحمة؟

هل فيه سلام؟

هل فيه كرم؟

هل فيه حياء؟

هل فيه مقاومة للفساد؟

هل إذا نزل أمر الله، كان هذا البيت قريباً من النجاة؟

البيت ليس جدراناً.

البيت روح.

وقد يكون البيت الصغير قلعةً إذا قام على الإيمان.

وقد يكون القصر خراباً إذا خلا من الله.

٢١. الآية الباقية

ثم يقول تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

العذاب مضى، لكن الآية بقيت.

ليست آثار الهلاك للفرجة التاريخية.

وليست قصص الأمم مادة ثقافية.

إنها آيات لمن يخاف.

﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾

وهنا نلاحظ أن الانتفاع بالآية مشروط بحالة قلبية: الخوف.

ليس كل من رأى الأثر تعظ.

وليس كل من قرأ القصة استيقظ.

الذي ينتفع هو الذي يحمل في قلبه قابلية الخوف من الله.

أما القلب المستهزئ، فيحوّل العبرة إلى معلومة.

والقلب الغافل، يمر على الخراب كما يمر على حجر صامت.

والقلب الخائف، يرى في الأثر رسالة شخصية:

انتبه، فإن سنن الله لا تحابي أحداً.

وهذا يربط القصة بأول السورة: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

فالذي يؤمن بأن الدين واقع، يقرأ مصائر الأمم لا بوصفها ماضيًا انتهى، بل

بوصفها إنذارًا ممتدًا.

٢٢. وحدة المشهد في السورة

إذا جمعنا هذا كله، رأينا أن قصة ضيف إبراهيم ليست مقطوعةً عن سياق السورة.

السورة تحدثت عن الوعد الصادق.

وهنا نرى وعد الولد يقع بعد استبعاد العادة.

وتحدثت عن الرزق في السماء.

وهنا نرى رزق الغلام يأتي من جهة الأمر الإلهي.

وتحدثت عن الدين الواقع.

وهنا نرى قومًا مجرمين يلحقهم الجزاء.

وتحدثت عن المحسنين.

وهنا نرى إبراهيم محسنًا في ضيافته وخلقه.

وتحدثت عن الخراصين الساهين.

وهنا نرى قوم لوط وقد بلغوا الغمرة والإسراف.

إذن القصة ليست استطرادًا.

إنها تجسيدٌ حي لمحاور السورة كلها.

في بيت إبراهيم: الرزق والوعد والكرم والبشارة.

وفي قوم لوط: الإجرام والإسراف والعذاب والآية الباقية.

وبينهما تقف الملائكة بوصفها رسل الأمر الإلهي، تحمل اللطف والحسم

معًا.

٢٣. خلاصة الفصل

تأتي قصة ضيف إبراهيم في سورة الذاريات لتعلم القلب عدة معانٍ كبرى.

أولاً: أن الإيمان يظهر في البيت كما يظهر في المناظرة والمحراب.
فإبراهيم عليه السلام لم يكن موحدًا في حجته فقط، بل كريماً في ضيافته.

ثانياً: أن الكرم من أخلاق اليقين.
فالذي يعرف الكريم سبحانه، يتعلم أن يكون كريماً مع خلقه.

ثالثاً: أن الخوف لا يناقض الإيمان إذا بقي في حد البشرية، ولم يتحول إلى
سوء ظن بالله أو ترك للحق.
فإبراهيم أوجس خيفة، ثم تلقى الطمأنينة والبشارة.

رابعاً: أن الرزق قد يأتي بعد انقطاع الأسباب.
فالعجوز العقيم بُشّرت بسلامٍ عليم، لا لأن العادة تسمح، بل لأن الرب قال.

خامساً: أن قول الله أعلى من تاريخ العجز.

(كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ)

هذه الجملة تهدم طغيان العادة حين تواجه وعد الله.

سادساً: أن الله الحكيم العليم؛ يعطي بحكمة، ويمنع بحكمة، ويؤخر بحكمة،
ولا يخرج شيء من تدبيره عن علمه.

سابعاً: أن الأمر الإلهي يحمل البشرى للمؤمنين، ويحمل العقوبة للمجرمين.
فالملائكة الذين بشروا بيت إبراهيم، مضوا إلى قومٍ مسرفين بالعذاب.

ثامناً: أن البيت المسلم قد يكون قليلاً في بيئة فاسدة، لكنه ليس قليلاً عند الله.
(فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ)

هذه القصة تعلمنا أن السماء ليست بعيدة عن بيوتنا.

قد تنزل البشارة في بيت هادئ.

وقد يخرج الله بيتاً واحداً من هلاكٍ عام.

وقد يتحول الضيف الغريب إلى رسول خير.

وقد يأتي الرزق من بابٍ لم يكن في الحساب.

لكنها تعلمنا أيضاً أن الإجرام له نهاية، وأن الإسراف في الفساد لا يمضي
بلا حساب، وأن الآثار الباقية في الأرض لا ينتفع بها إلا من يخاف العذاب
الأليم.

وهكذا يبقى المشهد كله معلقاً بين بشارة وخوف:

بيت إبراهيم يقول لك: لا تيأس من وعد الله.

وقوم لوط يقولون لك: لا تأمن مكر الله.

والملائكة بينهما يقولون: الأمر كله لله.

فكن بيتاً يصلح للبشارة.

ولا تكن موضعاً تنزل عليه الحجارة.

الفصل السابع

الرَّيْحُ الْعَقِيمُ وَنَهَايَاتُ الْمَكْذِبِينَ

قراءة في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾
إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ﴾

بعد قصة ضيف إبراهيم، وبعد البشارة بالغلام العليم، وبعد الإشارة إلى قوم
لوط وما ترك الله فيهم من آية، يفتح السياق بابًا آخر: باب المصارع.

تتتابع أمامنا أسماء وأمم ومشاهد:

فرعون.

عاد.

ثمود.

قوم نوح.

ليست السورة هنا في مقام السرد التاريخي المفصل.
إنها لا تعطي كل قصة مساحتها الطويلة، بل تلتقط من كل أمة لحظة
النهاية، أو أصل المرض الذي قاد إلى النهاية.

كأن سورة الذاريات بعد أن قررت: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

تقول للإنسان:

انظر كيف يقع الدين في التاريخ قبل أن يقع في الآخرة.

انظر كيف لا تبقى الغمرة بلا عاقبة.

وانظر كيف لا يظل الخرص والاستهزاء والاستكبار مجرد أفكار عابرة،

بل يتحول إلى مصير.

فليست مصارع الأمم في القرآن حكاياتٍ قديمة تُقرأ لتزجية الوقت.

إنها علامات طريق.

كل أمة هالكة تركت وراءها لافتةً مكتوبة بلغة الخراب:

هنا مرّ التكذيب.

هنا انتفخ الاستكبار.

هنا سُخر من الوحي.

هنا طغت القوة.

هنا تأخر الناس عن التوبة حتى سبقهم العذاب.

١. لماذا تأتي المصارع بعد آية الرزق والوعد؟

قبل هذه المشاهد، قالت السورة: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

ثم عرضت بيت إبراهيم، حيث جاءت البشارة من فوق العادة.

ثم جاءت مصائر المكذبين.

وهذا الترتيب شديد الدلالة.

فمن جهةٍ، الله يرزق ويبشر ويعطي.

ومن جهةٍ أخرى، الله يحاسب ويأخذ ويهلك من أصرّ على الإجرام.

إنها ليست سورة الطمأنينة الناعمة وحدها، وليست سورة التخويف المجرد وحده.

إنها سورة التوازن الرهيب بين لطف الله وجلاله.

فيها: ﴿جَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾. وفيها: ﴿عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾. فيها: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. وفيها: ﴿لَنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾. فيها: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾. وفيها: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾.

وهذا هو القرآن:

لا يدع القلب ينام في الرجاء الكاذب، ولا يحترق في الخوف اليائس.
بل يجعله بين الرجاء والخوف، بين الكرم والحساب، بين الرزق والوعد،
بين السهر المجهول ومصارع الغافلين.

٢. موسى وفرعون: السلطان المبين أمام السلطان المزيف

قال تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾

هنا يبدأ المشهد بموسى عليه السلام، لكنه يذهب مباشرةً إلى فرعون.

موسى جاء بـ سلطان مبين.

وفرعون كان يملك سلطاناً أرضياً عظيماً.

لكن الفرق بين السلطانيين كالفرق بين النور والغرور.

سلطان موسى برهان من الله.

وسلطان فرعون قوة من الأرض.

سلطان موسى يحرر.

وسلطان فرعون يستعبد.

سلطان موسى مبين؛ يكشف الحق.

وسلطان فرعون مزيف؛ يغطي الباطل بالصخب والملك والجند.

وهذه مواجهة دائمة في التاريخ:

وحي قليل العدد ظاهر البرهان، أمام طغيان كثير الأدوات ظاهر القوة.

من ينظر بعين الأرض فقط، يرى فرعون أرجح.

ملك.

جنود.

نهر.

قصر.

أمر ونهي.

قدرة على البطش.

ومن ينظر بعين الوحي، يرى موسى أرجح.

لأن معه سلطاناً من الله.

وهذا من أعظم دروس السورة:

لا تقس الحق بعدد الجنود.

ولا صدق الرسالة بحجم القصر.

ولا قوة الحجة بعلو المنبر.

ولا المستقبل بما يظهر الآن من انتفاخ الباطل.

كم بدا فرعون يومًا كأنه الدولة التي لا تُهزم.

وكم بدا موسى كأنه رجلٌ واحدٌ في وجه بنية هائلة من الطغيان.

لكن السورة تختصر النهاية كلها في آيات قليلة.

لأن الطغيان مهما طال، حين يدخل في حساب الله يصير مختصرًا جدًا.

٣. ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾

قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

هذه الآية تكشف نفسية الطاغية.

﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ﴾

أي أعرض مستندًا إلى قوته، وجنده، وملكه، وما يركن إليه من أسباب السلطة.

فرعون لم يرفض الحق لأنه لم يرَ السلطان المبين.

بل رفض لأنه كان له ركنٌ يتكى عليه.

وهذا مرضٌ عميق:

أن يكون للإنسان ركنٌ أرضي يمنعه من الانقياد للحق.

قد يكون الركن مألًا.

أو منصبًا.

أو قبيلة.

أو حزبًا.

أو جمهورًا.

أو تاريخًا شخصيًا.

أو ذكاء.

أو ثقافة.

أو قوة عسكرية.

أو صورة اجتماعية يخاف أن تنهار إن اعترف بالحق.

كل ركنٍ يتحول إلى مانعٍ من الله، فهو ركنٌ فرعوني، ولو لم يكن صاحبه ملكًا.

فرعون لم يكن وحده في التاريخ.

كل إنسانٍ يرد الحق لأنه يخاف على ركنه فيه شعبة من فرعون.

من يقول: لو قبلت هذا الحق خسرت مكانتي.

أو: لو تبت خسرت صورتي.

أو: لو أنصفت خصمي ضعف موقفي.

أو: لو قلت الحق غضب أنصاري.

أو: لو تركت الباطل انقطع رزقي.

هذا كله ركونٌ إلى غير الله.

والسورة التي قالت قبل قليل: (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ)

تكشف هنا أن فرعون تولى بركنه.

فالطاغية يركن إلى الأرض، والمؤمن يرفع قلبه إلى السماء.

٤. التهمة الجاهزة: ساحر أو مجنون

ثم قال: ﴿وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

عندما يعجز الباطل عن مواجهة الحجة، يلجأ إلى تشويه صاحبها.

الساحر: تهمة تضليل الناس، كأن الرسالة خداع.

المجنون: تهمة إسقاط العقل، كأن صاحب الرسالة لا يستحق الاستماع.

وهكذا يفعل الطغيان دائماً.

لا يناقش البرهان، بل يهاجم الشخص.

لا يواجه النور، بل يرمي المصباح بالحجارة.

لا يقول للناس: انظروا في الحجة.

بل يقول: لا تسمعوا لهذا الرجل؛ إنه ساحر أو مجنون.

هذه ليست مصادفة تاريخية.

إنها آلية متكررة في مقاومة الحق.

كل دعوة جادة تُتهم بما ينفّر الناس منها.

وكل صاحب حقٍ قد يُحاصر بقلبٍ ظالم.

وكل مصلحٍ قد يجد أن التهمة أسهل على الناس من التفكير.

لذلك قال في آخر المقطع: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا

سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

كأن التهمة نفسها ثُورَتْ.

يتغير الزمن، وتبقى اللغة في جوهرها واحدة.

هـ. (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ)

قال تعالى: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ)

يا لقوة الاختصار.

كل عظمة فرعون، كل قصره، كل جنده، كل تهديده، كل دعاواه، كل

استكباره، انتهت في جملة: (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ)

الأخذ هنا ليس معركة متكافئة.

إنه أخذ من الله.

وحين يأخذ الله، لا تنفع الجيوش التي كان الإنسان يظنها ركنه.

ثم: (فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ)

النبد يوحى بالطرح والإلقاء.

كأن ذلك المتكبر الذي قال يوماً: أليس لي ملك مصر، صار شيئاً منبодاً في

الماء.

ما أبلغ عدل الله.

فرعون الذي استعلى في الأرض، أُلقي في اليم.

والذي طارد المؤمنين عند البحر، صار البحر قبر سلطانه.

والذي ظن الماء تحت ملكه لأنه يجري من تحته، صار الماء نفسه طريق نهايته.

ثم قال: (وَهُوَ مُلِيمٌ)

أي أت بما يلام عليه.

لم يكن بريئاً.

لم يكن ضحية قدرٍ غامض.

بل كان مستحقاً للوم، لأنه رأى وكذب، واستكبر، واتهم، وطغى.

وهذا مهم في قراءة المصارع.

القرآن لا يقدّم الهلاك بوصفه كارثة طبيعية فقط، بل بوصفه نتيجة أخلاقية. هناك ذنب.

هناك إعراض.

هناك تكذيب.

هناك استكبار.

ثم يأتي الأخذ.

٦. عاد والريح العقيم

ثم تنتقل السورة: (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٦﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّمِيمِ)

هنا تعود الريح.

افتتحت السورة بالذاريات ذروا.

وهنا تأتي الريح العقيم.

في المطلع كانت الريح جزءًا من مشهد التدبير.

وهنا تصير الريح أداة عذاب.

وهذا الربط شديد الجلال.

الريح التي قد تحمل السحاب والمطر والحياة، قد تكون عقيمًا لا تحمل خيرًا.

ليست المشكلة في الريح ذاتها، بل في الأمر الذي تحمله.

إن أُمرت بالرحمة، كانت رحمة.

وإن أُمرت بالعذاب، كانت عذابًا.

(الرَّيْحَ الْعَقِيمَ)

العقيم هي التي لا خير فيها، لا تلقح سحابًا، ولا تأتي بمطر، ولا تحمل حياة. ريح مقطوعة البركة، حاملة للهلاك.

ما أبعد المسافة بين ريح تحمل السحاب، وريح تجعل كل شيء كالرميم.

وهذا يجعل المؤمن يقرأ الكون بخوفٍ وأدب.

ليست الطبيعة مستقلة.

وليست الظواهر مأمونة بذاتها.

كل شيء من جنود الله.

الماء قد يكون حياة، وقد يكون طوفانًا.

والريح قد تكون مبشرة، وقد تكون عقيماً.
والأرض قد تكون مهاداً، وقد تكون خسفاً.
والنار قد تكون إحراقاً، وقد تكون برداً وسلاماً.

العاقل لا يعبد قوانين الكون، بل يعبد رب الكون الذي جعل لها قوانينها وأمرها.

٧. عاد: قوة الجسد أمام ضعف المصير

عاد في القرآن أمة قوة.
أمة بناء وبطش وامتداد.
كانوا يرون أنفسهم أشداء.
ومنطق القوة إذا انفصل عن الله، يصنع غروراً كثيفاً.

صاحب القوة ينسى هشاشته.
يظن أن الجسد يحميه.
وأن البناء يحصنه.
وأن الكثرة تمنع عنه الانكسار.
وأن الحضارة المادية دليل النجاة.

ثم تأتي الريح.

لا تحتاج إلى سيوف.
ولا إلى جيش بشري.
ولا إلى مواجهة طويلة.
ريخٌ مأمورة تكفي.

(مَا تَذُرُّ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ)

كل ما مرّت عليه جعلته كالبالي المتفتت.

ما الذي بقي من قوتهم؟

ما الذي فعلته أجسادهم؟

ما الذي صنعت مبانيهم؟

ما الذي أغنت عنهم كبرياؤهم؟

حين تأتي الريح العقيم، يظهر أن القوة التي لم تتصل بالله كانت قشرة رقيقة أمام أمر الله.

ليس معنى ذلك أن القوة مذمومة في ذاتها.

الإسلام لا يحب الضعف.

لكن القوة إذا لم تُهذَّب بالتوحيد، صارت أداة غرور.

والحضارة إذا لم تخضع لله، صارت بناءً على حافة ريح.

٨. الريح التي تذرو أوهام الإنسان

الريح في هذه القصة لا تدمر الأشياء فقط.

إنها تذرو أوهامًا.

تذرو وهم الأمن بلا إيمان.

ووهم الحضارة بلا أخلاق.

ووهم القوة بلا عبودية.

ووهم أن الجماعة الكبيرة لا تهلك.

ووهم أن السنن الإلهية لا تنطبق على من تقدم ماديًا.

كل أمة تظن أنها أكبر من الحساب، فهي تقف في طريق ريحٍ ما، ولو لم تعرف صورتها.

قد لا تكون الريح دائمًا هواءً ماديًا.

قد تكون انهيارًا داخليًا.

أو فسادًا يستنزف الأمة من داخلها.

أو ظلمًا يأكل شرعيتها.

أو ترفًا يذيب صلابتها.

أو شهوةً جماعية تفكك بنيتها.

أو خوفًا يقتل روحها.

أو حربًا تكشف كذب قوتها.

المهم أن أمر الله إذا جاء، جعل ما كان يبدو صلبًا كالرميم.

وهنا يتربى القلب:

لا تغترّ بصورة القوة.

اسأل دائمًا: هل لهذه القوة صلةٌ بالحق؟

هل تحمل عدلاً؟

هل تعرف ربها؟

هل تخدم الإنسان أم تستعبده؟

هل تبني أم تطغى؟

القوة بلا هداية مشروع رميم مؤجل.

٩. ثمود: مهلة قصيرة أمام العتو

ثم يقول تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ۖ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۖ ﴿١٠﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾

هنا صورة أخرى.

ليست ربحاً طويلة عاتية، بل صاعقة. وليست قوة فرعونية بجيشها، ولا عاد بريحها، بل ثمود في لحظة عتو ثم أخذ مفاجئ.

﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾

هذه العبارة من أخطر ما يمكن أن يسمعه الغافل.

التمتع هنا ليس تكريماً، بل إمهال. والإمهال قد يخدع الإنسان إذا لم يفهمه.

كم من إنسان يرى أن استمرار النعمة دليل رضا. وكم من ظالم يظن أن تأخر العقوبة علامة إفلات. وكم من غافل يقول: ما دام كل شيء يمضي، فلا خطر.

لكن حتى حين تعني أن هناك حداً. هناك موعداً.

هناك نهاية للفسحة.

الإمهال ليس أبدًا.

والتمتع ليس براءة.

القرآن يعلمنا أن الزمن قد يكون حجةً عليك لا لك.

كل يوم يمر وأنت مصرّ، لا يعني أنك نجوت، بل قد يعني أن الشهادة عليك اكتملت.

١٠. العتو عن أمر الرب

قال تعالى: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾

العتو هو الاستكبار والتجاوز والتمرد.

ولاحظ التعبير: ﴿أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾

لم يقل فقط: عن الأمر.

بل أمر ربهم.

أي أن الذي تمردوا عليه ليس رأيًا بشريًا، بل أمر من ربهم الذي خلقهم ورزقهم وأمهلهم.

وهذا يزيد الذنب قبحًا.

فالتمرد على أمر الله ليس تمردًا على سلطة غريبة عن الإنسان.

إنه تمرد على من ربّاه بالنعمة.

على من أعطاه الحياة.

على من أمهله.

على من لم يزل يغذيه وهو يعصيه.

كل معصية فيها شيء من نسيان الربوبية.

لكن العتو درجة أشد: أن يعرف الإنسان أن الأمر من الله، ثم يتصلب في مخالفته.

(فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ)

أي لم يضعفوا فقط.

بل استكبروا.

والفرق كبير بين عاصٍ منكسر، ومتمرّد عاتٍ.

الأول يرجى له باب التوبة.

والثاني يخشى عليه أن يصير ذنبه هويةً وصلابة.

١١. الصاعقة وهم ينظرون

قال تعالى: (فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

هذه صورة مرعبة.

العذاب جاءهم وهم ينظرون.

أي أنهم شهدوا ما لا يستطيعون دفعه.

لم يكن غائبًا عن الحس.

لم يكن أمرًا لم يدركوه.

بل رأوه، ومع ذلك لم يملكوا نجاة.

وهنا يسقط وهم الإنسان الأخير: أن المعرفة المتأخرة تنفع.

قد يرى الإنسان العقابة حين لا يعود قادرًا على تغيير الطريق.

قد ينكشف له الحق بعد أن أغلق زمن العمل.

قد يوقن عند الموت بما كان ينبغي أن يوقن به في الحياة.

قد يرى الخطر، لكنه لا يستطيع الفرار.

(وَهُمْ يَنْظُرُونَ)

ليست كل رؤية نافعة.

الرؤية النافعة هي التي تأتي في زمن الاختيار.

أما رؤية النهاية بعد مجيئها، فقد تكون زيادة حسرة.

لهذا كان القرآن رحمةً لأنه يخبرك قبل أن تنتظر هذا النظر الأخير.

يعطيك فرصة أن ترى بالوحي قبل أن ترى بالعذاب.

أن تبصر بالآية قبل أن تبصر بالصاعقة.

أن تتوب بالخبر قبل أن تضطر بالواقع.

١٢. (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ)

ثم قال: (فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ)

كل القدرة انهارت.

لم يستطيعوا أن يقوموا.

ولا أن ينتصروا.

ولا أن يدفعوا.

ولا أن يستدركوا.

كان الآية تردّ الإنسان إلى هشاشته الأصلية.

هذا الكائن الذي يجادل، ويتكبر، ويؤجل، ويقول: غداً أتوب، وغداً أرجع، وغداً أصلح؛ قد تأتيه لحظة لا يستطيع فيها قياماً.

ليست المشكلة أن الإنسان ضعيف.

المشكلة أن الضعيف ينسى ضعفه.

لو تذكر الإنسان أنه قد يُسلب القدرة في لحظة، لاستحيا من تأجيل التوبة. ولو تذكر أن قيامه اليوم نعمة، لما سوف سجدة.

ولو تذكر أن اللسان الذي يعصي به قد يُسكت، لما أطلقه في الباطل.

ولو تذكر أن اليد التي يظلم بها قد تعجز، لما اغتر بها.

(فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ)

هذه آية تكسر غرور الجسد.

وتقول للإنسان: بادر وأنت تستطيع.

١٣. قوم نوح: الهلاك القديم

ثم يقول تعالى: (وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

ختمت السورة هذه السلسلة بقوم نوح، وكأنها ترجع إلى أولى التجارب الكبرى في التكذيب الجماعي.

(مَنْ قَبْلُ)

أي أن هذا الطريق قديم.
ليس التكنيب اختراعًا جديدًا.
ولا الغفلة ظاهرةً طارئة.
منذ البدايات والإنسان إذا انفصل عن الوحي يسلك المسار نفسه:
دعوة.
إعراض.
إمهال.
إصرار.
هلاك.

قوم نوح عاشوا زمنًا طويلاً مع الدعوة.
ومع ذلك قال هنا: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ)

الفسق هو الخروج.
خرجوا عن الطاعة، وعن الفطرة، وعن الهدى.
وهنا نرى أن طول مدة الدعوة لا يكفي إذا فُقد صدق الاستجابة.
قد يسمع الإنسان الحق سنوات، لكنه لا يتغير.
وقد يجاور الوحي عمرًا، ويبقى بعيدًا عنه.
وقد تكثر عليه الإنذارات حتى تصير مألوفةً عنده، فيكون الأُنس بالإنذار
نفسه حجابًا.

قوم نوح لم يهلكوا لأن البيان لم يصلهم.
بل لأنهم فسقوا بعد البيان.

١٤. تنوع العقوبات ووحدة السنّة

إذا تأملنا هذه المصارع وجدنا العقوبات مختلفة:

فرعون: اليم.

عاد: الريح العقيم.

ثمود: الصاعقة.

قوم نوح: الطوفان المذكور في مواضع أخرى، وهنا أُشير إليهم إجمالاً.

تختلف الأدوات، لكن السنّة واحدة.

ليس المهم شكل العذاب.

المهم أن التكذيب إذا أصرّ، والطغيان إذا استكبر، والإمهال إذا استُغل في
مزيد من الفساد، فإن النهاية تأتي.

قد تأتي من الماء.

أو الريح.

أو الصاعقة.

أو الانهيار الداخلي.

أو الخسف المعنوي قبل المادي.

أو الذل بعد العلو.

أو زوال البركة.

أو فقدان المعنى.

أو تمزق المجتمع من داخله.

الله لا يعجزه أن يأخذ أمةً من الباب الذي لم تحسبه.

فرعون أخذ بالماء الذي ظن أنه تحت سلطانه.

وعاد أخذت بالريح التي لا يستطيع أحدٌ إغلاق باب السماء دونها.

وثمود أخذت بالصاعقة وهم ينظرون.

وقوم نوح أخذهم الطوفان بعد طول إمهال.

وهكذا يتعلم المؤمن:

لا تأمن لأن شكل العقوبة لم يظهر.

فالسنة الإلهية أوسع من خيالك.

١٥. المصارع ليست للتشقي

ينبغي أن نقرأ هذه الآيات بقلوبٍ خاشعة، لا بقلوبٍ متشفية.

القرآن لا يذكر هلاك الأمم ليصنع في المؤمن نشوة شماتة.

بل ليصنع خوفًا ويقظة.

من قرأ مصارع المكذبين وهو يقول: هؤلاء هم، فقد فاته نصف العبرة.

ومن قرأها وهو يقول: ما الذي في من بذور طريقهم؟ بدأ يفهم.

في كل نفسٍ قابلية صغيرة لفرعون: التكبر بالركن.

وقابلية لعاد: الغرور بالقوة.

وقابلية لثمود: استغلال الإمهال.

وقابلية لقوم نوح: طول الأُنس بالإنذار دون استجابة.

نعم، هناك فرق بين المؤمن والكافر، وبين المعصية والإصرار، وبين الضعف والعتو.

لكن المؤمن الصادق لا يقرأ الهالكين كأنهم جنسٌ آخر لا صلة له به. يقرأهم ليخاف على نفسه من الطريق، لا ليطمئن لأنه ليس في النهاية نفسها.

من هنا تكون العبرة نافعة.

كلما رأيت فرعون، فاسأل: ما الركن الذي أخشى أن يمنعني من الحق؟ وكلما رأيت عادًا، فاسأل: ما القوة التي قد تغرّني؟ وكلما رأيت ثمود، فاسأل: هل أستغل الإمهال في التوبة أم في التماذي؟ وكلما رأيت قوم نوح، فاسأل: هل كثرة سماعي للحق زادتني استجابة أم ألفة باردة؟

١٦. السخرية المتوارثة

ثم تأتي الآية الجامعة: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿١﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

هنا يكشف القرآن وحدة الاستجابة الباطلة عبر التاريخ.

كأن الأمم تواصلت بهذه التهمة.

كلما جاء رسول، قيل: ساحر أو مجنون.

والسؤال القرآني عجيب: ﴿أَتَوَاصُوا بِهِ﴾

هل جلسوا عبر القرون وتواصوا بهذه الكلمة؟

لا.

لكن المرض واحد، فأنتج اللغة نفسها.

حين يتشابه الباطل في داخله، تتشابه عباراته ولو تباعدت أزمانه.

الذين يرفضون الحق لا يحتاجون دائماً إلى تنسيق مباشر.

يكفي أن تشترك قلوبهم في الطغيان، فتخرج ألسنتهم بتهم متقاربة.

ثم يأتي الجواب: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

ليست المسألة شبهة عقلية مجردة.

إنها طغيان.

الطغيان يجعل الإنسان يبحث عن أي كلمة يرد بها الحق.

ساحر.

مجنون.

متخلف.

رجعي.

متطرف.

حالم.

خارج عن الواقعية.

كلمات تتغير، ووظيفة واحدة: إبعاد الناس عن الإنصات للحق.

١٧. الطغيان يحمي نفسه باللغة

من أهم ما تكشفه هذه الآية أن الطغيان لا يستخدم القوة وحدها.
يستخدم اللغة.

التهمة سلاح.

والتصنيف سلاح.

والسخرية سلاح.

وتشويهه صاحب الحق سلاح.

فرعون لم يكتفِ بجيشه.

قال: ساحر أو مجنون.

لأن الطغيان يريد السيطرة على المعنى قبل السيطرة على الجسد.
يريد أن يحدد للناس كيف يسمعون الرسول قبل أن يسمعوه.
يريد أن يضع في آذانهم حكمًا مسبقًا: لا تأخذوه بجدية.

وفي كل عصر تتجدد هذه الحيلة.

بدل أن يناقش الباطل الفكرة، يعلق عليها لافتةً منفرة.
وبدل أن يواجه الحجة، يشكك في عقل صاحبها أو نيته.
وبدل أن يسمح للناس بالإنصات، يملأ الجو بالضجيج.

لذلك يحتاج المؤمن إلى وعي لغوي.

لا ينخدع بالألقاب الجاهزة.

ولا يسمح للتهمة أن تحل محل البرهان.

ولا يقيس الحق بردود خصومه عليه.

كم من حقٍ لُطخ اسمه طويلاً، ثم بقي حقاً.

وكم من باطلٍ تزيّن بالألقاب، ثم بقي باطلاً.

الأسماء لا تغير حقائق الأشياء عند الله.

١٨. متى يجب الإعراض؟

بعد هذا كله، يقول الله لنبيه ﷺ: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۖ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

وهذا انتقال تربوي بالغ الأهمية.

بعد ذكر تكذيب الأمم، وبعد بيان أن التهمة تتكرر، يأتي توجيه للنبي ﷺ:
تَوَلَّ عَنْهُمْ، فما أنت بملوم.

ليس معنى التولي هنا ترك البلاغ المطلق، بدليل قوله بعدها: (وَذَكِّرْ).
لكنه إعراض عن جدلٍ عقيم، وعن قلوبٍ أغلقت أبوابها، وعن عنادٍ لا يريد الهداية.

وهذا درس للمصلحين.

ليس كل من جادلك يريد الحق.

وليس كل سائل يستحق أن تستنزف روحك معه.

وليس كل معاندٍ ينبغي أن تمنحه من قلبك ما يدمرك.

هناك لحظة يصبح فيها الاستمرار في الجدل إهداراً للرسالة، لا خدمة لها.

(فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ)

أي أنك أديت ما عليك.
لست مسؤولاً عن هداية من اختار الطغيان.
لست مطالباً أن تكسر قلوباً أبت أن تلين.
لست مكلفاً بنتائج لا يملكها إلا الله.
كم يحتاج الداعية والكاتب والمصلح إلى هذه الآية.
حتى لا ينهار تحت ثقل الناس.
وحتى لا يقيس صدق رسالته بعدد المستجيبين.
وحتى لا يظن أن عناد المعاندين تهمة في بيانه دائماً.
هناك من لا تنقصه الحجة، بل ينقصه الإنصاف.
ومن لا يطلب نوراً، بل يريد أن يطفئ نورك.

١٩. (وَذَكِّرْ)

ثم قال: (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

ما أجمل التوازن.

تولّ عن المعاندين، لكن لا تترك التذكير.
لا تجعل قسوة المكذبين تمنعك من نفع المؤمنين.
لا تسمح للخصوم أن يحتكروا طاقتك كلها.
هناك قلوبٌ تنتفع.
هناك أرواحٌ تنتظر كلمة.

هناك مؤمنون تزيدهم الذكرى يقينًا.

هناك مترددون يفتح الله لهم بابًا.

هناك محسنون يحتاجون تثبيتًا.

وهذا من أعظم فقه الرسالة.

بعض المصلحين يستهلكهم الرد على الخصوم حتى ينسوا تربية المؤمنين.

يظنون في معارك الدفاع، وينسون بناء الداخل.

والقرآن يقول: نعم، تولّ عن المكذبين حين يبلغ العناد مداه، لكن واصل

التذكير؛ لأن الذكرى تنفع المؤمنين.

ليس معيار نجاح التذكير أن ينتفع به الجميع.

يكفي أن ينتفع به من بقي في قلبه حياة.

(فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

المؤمن ينتفع لأنه لا يستقبل الذكرى بكبرياء.

قد يعلم المعلومة، لكن الذكرى تحييها فيه.

قد يؤمن بالآخرة، لكن الذكرى تردّها إلى قلبه.

قد يعرف الرزق، لكن الذكرى تثبته عند الخوف.

قد يحب قيام الليل، لكن الذكرى توقظه من الكسل.

قد يعرف ذنبه، لكن الذكرى تدفعه إلى الاستغفار.

الذكرى ليست إضافة معلومات دائمًا.

إنها إعادة حياة إلى ما نعرفه.

٢٠. المصارع بوصفها ذكرى

إذن مصارع الأمم نفسها ذكرى.

فرعون ذكرى لمن اغتر بالركن.

عاد ذكرى لمن اغتر بالقوة.

ثمود ذكرى لمن اغتر بالإمهال.

قوم نوح ذكرى لمن طال عليه زمن الدعوة فلم يستجب.

والمؤمن لا يحتاج أن تتكرر المصيبة فيه حتى يتعلم.

يكفيه أن يرى أثرها في غيره.

هذا من رحمة الله:

أن جعل لنا تاريخًا نتعظ به قبل أن نصير نحن عبرة.

لكن من لم ينتفع بالعبرة، قد يتحول إلى عبرة.

ومن لم يقرأ المصارع قراءة توبة، قد يتركه الله حتى يُقرأ هو قراءة مصير.

٢١. خلاصة الفصل

تأتي مشاهد فرعون وعاد وثمود وقوم نوح في سورة الذاريات لتقول

للإنسان إن الوعد الصادق ليس كلامًا مؤجلًا بلا شواهد.

لقد ظهرت آثاره في التاريخ مرارًا.

في فرعون نرى الطغيان حين يتولى بركنه، ويواجه السلطان المبين بتهمة:

ساحر أو مجنون، ثم تكون نهايته في اليم.

وفي عاد نرى القوة حين تغتر بنفسها، فتأتيها الريح العقيم، فلا تترك ما أنت عليه إلا جعلته كالرميم.

وفي ثمود نرى الإمهال حين يساء فهمه، فيقال لهم: تمتعوا حتى حين، ثم يعتون عن أمر ربهم، فتأخذهم الصاعقة وهم ينظرون.

وفي قوم نوح نرى الفسق القديم، وطول الإعراض، ومآل أمة لم تنفعها كثرة الإنذار لأنها لم ترد الاستجابة.

ثم تجمع السورة هذه المصائر في قانون واحد: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿١﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)

إنها ليست أزمة دليل فقط.

إنها أزمة طغيان.

ثم تأتي التربية للنبي ﷺ ولمن يحمل شيئاً من ميراث البلاغ: (فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ﴿٢﴾ وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

أي لا تجعل المعاندين يستهلكون روحك.

ولا تترك التذكير لأن بعض الناس لا ينتفعون.

هناك قلوب مؤمنة تحتاج إلى الذكرى، والذكرى تحييها.

هذا الفصل كله يقول لنا:

لا تغترّ بركن.

ولا بقوة.

ولا بإمهال.

ولا بكثرة.

ولا بتكرار التهمة على أهل الحق.

فكل ركنٍ دون الله ساقط.

وكل قوةٍ بلا عبودية رميم.

وكل إمهالٍ بلا توبة استدراج.

وكل تكذيبٍ للوحي طريقٌ قديم إلى نهايةٍ لا تتخلف.

والعقل من رأى الريح العقيم في مصير غيره، قبل أن تهبّ على غروره.

الفصل الثامن

سرّ الوجود كله

قراءة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

بعد الرياح، والوعد، والقيامة، والخراصين، والمتقين، والرزق، وبيت إبراهيم، ومصارع الأمم، تصل السورة إلى الجملة التي تشبه المركز الخفي لكل ما سبق: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

هنا لا نتحدث السورة عن حدث في الكون، ولا عن أمة هالكة، ولا عن طائفة ناجية، ولا عن رزق في السماء، بل عن سبب الوجود نفسه.

هذه الآية لا تجيب عن سؤال صغير.

إنها تجيب عن سؤال الإنسان الأكبر:

لماذا خلقت؟

لماذا أنا هنا؟

ما الغاية من هذا العمر؟

ما معنى أن أكون إنساناً؟

إلى أين تتجه هذه الحياة بكل آلامها وأرزاقها وخوفها ورجائها؟

والجواب يأتي موجزاً، حاسماً، لا يترك الوجود مفتوحاً للعبث: ﴿إِلَّا

لِيَعْبُدُونِ﴾

كأن السورة كلها كانت تمهد لهذا الموضع.
فإذا كان الوعد صادقاً، والدين واقعاً، والرزق في السماء، والمكذبون لهم مصارع، والمتقون لهم جنات وعيون، فالخلاصة أن الإنسان لم يُخلق ليعيش بلا غاية.
لم يُخلق ليكون كائنًا يستهلك الرزق وينسى الرزاق.
ولا ليطلب الدنيا ثم يخرج منها كما دخل: فقيرًا إلى معنى لم يعرفه.
بل خُلِق ليعبد الله.

١. الآية التي توقف كل الفلسفات الصغيرة

كثيرٌ من الفلسفات تبدأ من الإنسان وتنتهي عند الإنسان.

تسأل: ماذا يريد الإنسان؟

ما الذي يحقق لذته؟

ما الذي يوسع حريته؟

ما الذي يمنحه القوة؟

ما الذي يجعله منتجاً؟

ما الذي يرضي ذاته؟

لكن القرآن يبدأ من الخالق.

لا يسأل أولاً: ماذا تريد أنت من الحياة؟

بل يقول لك: ما الذي أراده الله من خلقك؟

وهذا فرقٌ عظيم.

لأن الإنسان إذا بدأ من نفسه وحدها، جعل رغباته مركز الكون.
وإذا بدأ من الله، عرف أن وجوده أمانة لا ملكية مطلقة.

(وَمَا خَلَقْتُ)

هذه الكلمة وحدها تنهي وهم الاستقلال المطلق.

أنت مخلوق.

لم تصنع نفسك.

لم تستدع وجودك من العدم.

لم تختار لحظة ميلادك.

لم تختار جسدك الأول.

لم تختار أباك وأمك.

لم تختار أن تكون قابلاً للموت.

ولم تمنح نفسك الروح.

فكيف يكون المخلوق بلا غاية من خالقه؟

إذا كان أدنى مصنوع في الدنيا لا يفهم إلا بسؤال صانعه عن وظيفته، فكيف
بالإنسان، وهو أعقد وأشرف وأثقل مسؤولية؟

الآية ترد الإنسان إلى البداية الصحيحة:

أنت مخلوق، إذن غايتك ليست من اختراعك.

أنت عبد، إذن كمالك ليس في التمرد على خالقك، بل في الانسجام مع
مراده.

٢. العبادة ليست تضيقاً للحياة

حين يسمع بعض الناس كلمة العبادة، يتخيلونها حبساً للحياة في طقوس محدودة.

كأن العبادة تعني أن ينسحب الإنسان من الأرض، ومن العمل، ومن الفكر، ومن الجمال، ومن العلاقات، ليبقى في زاوية ضيقة من الشعائر.

وهذا فهم ناقص.

العبادة في القرآن ليست تصغيراً للحياة، بل إعطاء الحياة معناها الصحيح.

الصلاة عبادة.

والصدق عبادة.

والعدل عبادة.

والرحمة عبادة.

وطلب الرزق الحلال عبادة.

وتربية الولد عبادة.

والكلمة التي تُراد بها هداية الناس عبادة.

والصبر عبادة.

والعفو عبادة.

ومقاومة الظلم عبادة إذا انضبطت بالحق.

والعلم عبادة إذا قاد إلى الخشية.

والجمال عبادة إذا لم يقطع القلب عن الله.

العبادة ليست أن تترك الحياة، بل أن تعيش الحياة لله.

ليست أن تنطفئ إنسانيتك، بل أن تتطهر إنسانيتك من عبودية الهوى.
ليست أن تفقد حريتك، بل أن تتحرر من العبوديات الصغيرة كلها.

من لم يعبد الله، لن يبقى حرًا.
سيعبد شيئًا آخر.

سيعبد المال، أو الجاه، أو الجسد، أو الخوف، أو الناس، أو السلطة، أو
صورته عن نفسه، أو جراحه، أو شهوته، أو فكرته، أو السوق، أو التصفيق.

الإنسان لا يخرج من العبودية.
إنما يختار سيده.

والقرآن يريد له أشرف العبوديات:
أن يكون عبدًا لله وحده.

٣. لماذا قال: الجن والإنس؟

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ﴾

الآية تجمع العالمين المكلفين: الجن والإنس.
مخلوقات مختلفة في طبيعتها، متحدة في الغاية الكبرى.

وهذا يدل على أن العبادة ليست وظيفة نوع بشري فقط، بل هي قانون
التكليف العاقل في الوجود.

كل من أعطي إدراكًا واختيارًا ومسؤولية، فغايته أن يعرف ربه ويعبده.

ليس الإنسان استثناءً عبثيًا في الكون.
إنه داخل منظومة العبودية العامة.
الكون كله خاضع لله قهراً، والمؤمن يخضع له اختياراً ومحبةً وتسليماً.

السماء لا تتمرد على أمره.
والأرض لا تخرج عن حكمه.
والرياح لا تهب إلا بإذنه.
والسحب لا تحمل إلا بما قدر.
والجاريات لا تجري إلا بتيسيره.
والملائكة لا يعصون الله ما أمرهم.

فما أغرب أن يكون الإنسان، وهو الضعيف المحتاج، أكثر الكائنات جرأةً
على الغفلة.

السورة بدأت بمخلوقات تؤدي وظائفها:
الذاريات تذرو.
الحاملات تحمل.
الجاريات تجري.
المقسمات تقسم أمراً.

ثم تنتهي بوظيفة الجن والإنس: (إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

فإذا لم يعبد الإنسان، صار نشازاً في كون قائم على الطاعة.

٤. العبادة بوصفها معرفة

العبادة ليست حركةً بلا معرفة.

لا يعبد الإنسان الله حقًا حتى يعرفه.

يعرف أنه الخالق، الرازق، الحكيم، العليم، القوي، المتين، الرحمن، الرحيم، القهار، اللطيف.

لذلك جاءت الآية بعد سياق طويل من تعريف القلب بالله.

عرفته السورة بأنه الذي يقسم الأمر.

والذي يصدق وعده.

والذي يرزق من السماء.

والذي يبشر بعد انقطاع الأسباب.

والذي يأخذ الطغاة.

والذي يجعل الريح جنْدًا.

والذي يجعل الصاعقة جنْدًا.

والذي ينجي البيت المؤمن.

والذي لا يغفل عن السهر المجهول.

بعد هذه المعرفة، تأتي العبادة.

كأن السورة تقول: هذا هو ربكم، فاعبدوه.

فالعبادة لا تقوم على أمرٍ مجرد فقط، بل على معرفة تجعل الأمر محبوبًا ومهيئًا.

كلما عرفت الله أكثر، صارت العبادة أقل ثقلاً وأعظم معنى.
وكلما جهلته، صارت العبادة عادةً باردة أو عبئاً ثقیلاً.

من عرف الله رازقاً، لم يعبد الرزق.
ومن عرفه حكيمًا، لم ييأس عند التأخير.
ومن عرفه عليمًا، استحيا في الخلوة.
ومن عرفه قويًا متينًا، لم يركن إلى الطغاة.
ومن عرفه كريمًا، أحسن الظن به.
ومن عرفه شديد الأخذ، لم يأمن مكره.

العبادة ثمرة المعرفة.
والمعرفة التي لا تثمر عبادة، معرفة لم تبلغ القلب.

٥. العبادة ليست حاجة من الله

بعد قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

يأتي البيان مباشرة: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

هذا من أعظم ما يطهر معنى العبادة.

قد يتوهم الإنسان أن الله يأمره بالعبادة لحاجةٍ إليه.
فتأتي الآيات لتقطع هذا الوهم من جذره.

الله لا يريد من عباده رزقاً.
ولا يريد منهم أن يطعموه.

ولا تزيد طاعتهم ملكًا.

ولا تنقصه معصيتهم سلطانًا.

هو الرزاق.

وهو ذو القوة.

وهو المتين.

إذن العبادة ليست لسد حاجة في الرب، بل لسد حاجة في العبد.

نحن المحتاجون إلى العبادة.

نحن الذين تنبيه قلوبنا إذا لم تسجد.

نحن الذين تتبعثر أرواحنا إذا لم تجتمع على الله.

نحن الذين يفسد مالنا إذا لم يضبطه الحلال.

ونحن الذين يطغى علمنا إذا لم يخضع للوحي.

ونحن الذين تتحول حريتنا إلى فوضى إذا لم تتأدب بالعبودية.

العبادة ليست ضريبة يدفعها الإنسان لله.

إنها رحمة من الله بالإنسان.

٦. الرزاق ذو القوة المتين

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

جاء الاسم هنا مناسبًا للسورة كلها.

قبل ذلك قالت: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

وهنا تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾

ليس الرزق في السماء معنىً عامًّا بلا صاحب.
صاحبه الله الرزاق.

ثم: ﴿ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

أي أن رزقه ليس كرزق الضعفاء.
المخلوق قد يريد أن يعطي ولا يقدر.
وقد يقدر اليوم ويعجز غدًا.
وقد يعد ثم يمنعه نقص القوة.
أما الله فهو الرزاق ذو القوة المتين.

قوته لا تتعب.
ومتانته لا تضعف.
وعطاؤه لا ينفد.
وتدبيره لا يختل.
لا يرزق لأنه محتاج إلى عوض.
ولا يعطي لأنه يخاف فوات شيء.
ولا يمنع عجزًا.
ولا يؤخر نسيانًا.

وهذا المعنى يحرر العبادة من القلق.

اعبد الله، ولا تظن أن عبادتك ستقطع رزقك.
قل الحق، ولا تظن أن الصدق يضيّعك.

اترك الحرام، ولا تظن أن الحرام كان مصدر حياتك.
قم بما خلقت له، فالرزاق هو الذي تكفل بما تحتاج إليه.
كثير من الناس يتركون العبادة الكاملة خوفاً على الرزق.
تقول له الصلاة: تعال.
فيقول السوق: ابق.
ويقول له الحق: تكلم.
فيقول المنصب: اسكت.
ويقول له الحلال: اصبر.
فيقول الحرام: أنا الطريق الأسرع.

فتأتي الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

أي لا تجعل طلب الرزق يسرقك من غاية الخلق.
فالذي خلقت للعبادة لم ينسَ رزقك.

٧. لماذا خُتِمت الغاية بالرزق؟

قد يتساءل القلب: لماذا بعد آية العبادة جاء نفي إرادة الرزق والإطعام، ثم إثبات أن الله هو الرزاق؟

لأن أكثر ما يشغل الإنسان عن العبادة هو الرزق.

الإنسان لا يقول دائماً: لا أريد أن أعبد.

بل يقول: أنا مشغول.

أخاف على معاشي.

أبحث عن مستقبلي.

أرتب حياتي.

أضمن أطفالي.

أحتاج أن أتنازل قليلاً.

أن أؤجل قليلاً.

أن أصمت قليلاً.

أن أدخل في شيء من الحرام حتى أستقر.

فيتحول الرزق إلى منافس للعبادة.

فجاءت الآيات لنقول: لا تجعل الرزق خصماً للغاية.

فالله لم يخلقك لتطعمه، بل خلقك لتعبده، وهو الذي يطعمك.

لم يخلقك لتتكفل برزق الكون، بل خلقك لتقوم بعبوديتك في الكون.

هذا لا يعني ترك العمل، بل يعني عدم قلب المعادلة.

اعمل للرزق؛ لأنك مأمور بالسعي.

لكن لا تجعل الرزق هو معنى وجودك.

اجتهد في المعاش؛ لكن لا تنسَ المعاد.

ابن دنيائك بما أحل الله؛ لكن لا تجعلها معبداً لقلبك.

٨. عبودية الرزق

من لم يفهم قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾

قد يقع في عبودية الرزق.

وعبودية الرزق ليست الفقر فقط.

قد يكون الفقير عبدًا للرزق بقلقه، وقد يكون الغني عبدًا للرزق بجشعه.

عبد الرزق هو الذي يبيع لأجله ما لا ينبغي أن يُباع.

يبيع وقته كله.

أو ضميره.

أو صدقه.

أو دينه.

أو كرامته.

أو سلام قلبه.

يظن أنه يملك المال، والمال يملكه.

يظن أنه يجمع الرزق، والرزق يبدد عمره.

يظن أنه يسعى ليعيش، فإذا به يعيش ليسعى فقط.

أما العبد لله، فيعرف موضع الرزق من الحياة.

الرزق وسيلة، لا غاية.

نعمة، لا إله.

أمانة، لا هوية.

باب شكر، لا سبب كبر.

امتحان، لا معيار كرامة مطلق.

لذلك كان تحرير القلب من عبودية الرزق شرطًا عظيمًا للعبودية

الصحيحة.

٩. العبادة بوصفها تحريرًا

حين يقول الله: **(إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)**

فهو لا يحبس الإنسان، بل يحرره.

يحرره من عبادة نفسه؛ لأن النفس إذا تُركت بلا وحي صارت طاغيةً صغيرة.

ويحرره من عبادة الناس؛ لأن رضا الناس لا ينتهي.

ويحرره من عبادة الخوف؛ لأن الخوف إذا انفرد بالقلب أذله.

ويحرره من عبادة الشهوة؛ لأنها تعد باللذة وتترك الندم.

ويحرره من عبادة القوة؛ لأنها تسكر صاحبها حتى تسقطه.

ويحرره من عبادة الزمن؛ لأن الإنسان إذا عاش للحظة فقط، خان الأبد.

العبودية لله هي الحرية الوحيدة التي لا تنقلب إلى فوضى.

كل حرية لا تعرف الله قد تتحول إلى عبوديةٍ لشيءٍ أدنى.

أما العبودية لله، فتضع كل شيءٍ في موضعه:

الجسد له حق، لكنه ليس إلهاً.

العقل له مقام، لكنه ليس رباً.

المال له قيمة، لكنه ليس معبوداً.

الناس لهم احترام، لكنهم ليسوا مصدر الحق.

الدنيا لها استعمال، لكنها ليست النهاية.

بهذا يصبح الإنسان متوازنًا؛ لأنه انتمى إلى المركز الصحيح.

١٠. العبادة ومعنى الكرامة

قد يظن الإنسان أن كرامته في أن لا يكون عبدًا لأحد.
وهذا صحيح إذا كان المقصود الخلق.
لكن كرامته العليا في أن يكون عبدًا لله.

فالإنسان لا يكتمل حين يستقل عن خالقه، بل حين يتصل به.
كما أن النهر لا يكتمل حين ينقطع عن منبعه، ولا الغصن حين ينفصل عن
جذره، ولا العين حين تستغني عن النور.

العبودية لله ليست نقصًا في الإنسان، بل هي مقامه الصحيح.
لأنه حين يقول: أنا عبد لله، فهو يقول في الوقت نفسه: لست عبدًا لغيره.

من هنا كانت العبودية عزًا.

الذي يسجد لله لا يسجد للطغاة.
والذي يرجو الله لا يتكسر على أبواب الناس.
والذي يخاف الله لا ينهار أمام تهديد المخلوق.
والذي يطلب وجه الله لا يفتقر إلى تصفيق الجمهور.
والذي يعلم أن رزقه عند الله لا يبيع قلبه لأصحاب الأرزاق الوهمية.
كلما صدق الإنسان في عبوديته لله، زادت حريته من كل ما سواه.

١١. العبادة ليست هروبًا من التاريخ

بعض الناس يظن أن قولنا: خلق الإنسان للعبادة، يعني أن يترك مواجهة
الظلم، وعماراة الأرض، وإصلاح المجتمع.

وهذا خطأ.

لأن العبادة في الإسلام تشمل القيام بالحق في التاريخ.
موسى عليه السلام حين واجه فرعون كان في عبادة.
وإبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام كان في عبادة.
ونوح عليه السلام حين صبر على قومه كان في عبادة.
والنبي ﷺ حين بلغ وصبر وجاهد وربى كان في عبادة.

العبادة ليست انسحاباً من المسؤولية، بل ضبط المسؤولية بمراد الله.

تعمل، لكن لله.

تقاوم الظلم، لكن لا تظلم.

تبني، لكن لا تطغى.

تتعلم، لكن لا تتكبر.

تحكم، لكن تعدل.

تعارض، لكن لا تفجر.

تكتب، لكن لا تبيع المعنى للهوى.

من هنا تصير العبادة أوسع من المحراب، دون أن تفقد المحراب.

فمن لا محراب له، يخشى أن تفسده ميادينه.

ومن لا ميدان له، يخشى أن تتحول عبادته إلى عزلة باردة عن واجب

الحق.

الإسلام يريد إنساناً يسجد لله، ثم ينهض من سجوده أكثر صدقاً وعدلاً ورحمة.

١٢. العبادة والليل

حين نربط هذه الآية بآيات المتقين في أول السورة، ندرك معنى لطيفاً.

قال هناك: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٠﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾

وقال هنا: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾

قيام الليل إذن ليس نافلةً هامشيةً في سورة الذاريات، بل هو تطبيقٌ حيٍّ لغاية الخلق.

حين يقوم الإنسان في الليل، كأنه يعود إلى وظيفته الأولى بعيداً عن ضجيج النهار.

يترك الأدوار كلها: الكاتب، التاجر، الأب، العامل، صاحب المشروع، صاحب الجرح، صاحب الخصومة. ويقف بمعناه الأعمق: عبد.

في الليل يظهر جوهر الإنسان.

النهار يوزعك على الأسماء. والليل يعيدك إلى الاسم الأصلي: عبد الله.

وهذا من أسرار السهر المجهول.

إنه ليس مجرد عمل صالح بين أعمال، بل عودة إلى معنى الوجود. العبد الذي يترك نومه لله يعلن بجسده أن الغاية لم تمت في داخله.

١٣. العبادة والرزق

وكذلك ترتبط آية العبادة بآية الرزق: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

ثم: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾

فالمعنى واحد: لا تُفسد غاية الخلق بالخوف على وسيلة العيش.

خلقك للعبادة، وتكفل برزقك.

فلا تجعل ما تكفل به يشغلك عما خلقك له.

وهذه قاعدة لو استقرت في القلب، لخفت كثير من القلق.

أنت لست مطالباً أن تحمل همّ الربوبية.

أنت مطالب أن تقوم بحق العبودية.

نعم، تعمل وتسعى وتخطط.

لكن لا تحمل قلبك فوق طاقته.

لا تجعل الرزق همّاً يبتلع الصلاة.

ولا المستقبل وهمّاً يسرق الحاضر.

ولا الخوف سوطاً يطردك من باب الله.

الرازق قوي متين.

وأنت عبد ضعيف.

فكن عبداً كما ينبغي، واترك للرب ما لا يليق إلا بالرب.

١٤. العبادة ومصارع المكذبين

وترتبط الآية أيضاً بمصارع الأمم.

ما الذي أهلك فرعون؟

أنه رفض العبودية لله، وادعى لنفسه مقاماً فوق البشر.

ما الذي أهلك عاداً؟

قوة لم تنكسر لله.

ما الذي أهلك ثمود؟

عتو عن أمر ربهم.

ما الذي أهلك قوم نوح؟

فسق عن طريق العبودية.

إذن الهلاك في جوهره خروج عن العبودية.

والنجاة في جوهرها عودة إليها.

كلما نسي الإنسان أنه عبد، بدأ الهلاك بشكلٍ ما.

قد لا يهلك فوراً.

قد يمهل.

قد يتمتع حتى حين.

لكنه يمشي في طريقٍ خطر.

والعبودية هنا ليست كلمةً روحية رقيقة فقط.

إنها قانون النجاة.

من عرف أنه عبد، تواضع.
ومن تواضع، قبل الحق.
ومن قبل الحق، أطاع.
ومن أطاع، نجا.
ومن تكبر عن العبودية، دخل في طريق فرعون ولو بقدر.

١٥. العبادة وسؤال الهوية

الإنسان المعاصر كثير السؤال عن هويته.

من أنا؟

ما مشروعي؟

ما قيمتي؟

ما مكاني في العالم؟

كيف أحقق ذاتي؟

والقرآن لا يهمل هذه الأسئلة، لكنه يعيد ترتيبها.

أنت قبل كل شيء عبد لله.

ثم تأتي بقية الهويات تحت هذا الأصل.

أنت كاتب، لكن عبد.

مفكر، لكن عبد.

أب، لكن عبد.

حاكم أو محكوم، لكن عبد.

فقير أو غني، لكن عبد.

قوي أو ضعيف، لكن عبد.

مشهور أو مجهول، لكن عبد.

إذا ضاعت الهوية الأولى، فسدت بقية الهويات.

فالكاتب بلا عبودية قد يعبد أثره.

والمفكر بلا عبودية قد يعبد عقله.

والحاكم بلا عبودية قد يعبد سلطته.

والغني بلا عبودية قد يعبد ماله.

والفقير بلا عبودية قد يعبد حاجته.

والمظلوم بلا عبودية قد يعبد جرحه.

العبودية هي التي تمنع كل صفة فيك أن تتحول إلى صنم.

١٦. العبادة ومقام الكاتب

ولأن الكتابة من أخص ما يلامس روح صاحبها، فإن هذه الآية تخاطب الكاتب بقوة.

ما معنى أن تكتب وأنت عبد؟

معناه أن الكلمة ليست ملكًا كاملاً لهواك.

ليست وسيلة انتقام.

ولا سلماً إلى الشهرة فقط.

ولا مساحة لاستعراض البلاغة.

ولا حيلة لصناعة صورة متضخمة عن الذات.

الكلمة عبادة إذا أرادت الحق.

وخطر إذا أرادت النفس وحدها.

الكاتب العبد يسأل قبل أن يكتب:

هل هذه الكلمة تقربني من الله؟

هل تنصر حقاً؟

هل تظلم أحداً؟

هل تبالغ في المدح أو الذم؟

هل أطلب بها هداية أم أطلب بها أن يُقال عني؟

هل أكتب من نور الفكرة أم من دخان الجرح؟

وليس معنى ذلك أن تخلو الكتابة من الجمال.

بل الجمال نفسه قد يكون عبادة إذا صار خادماً للحق.

اللغة حين تسجد للمعنى تصير طاهرة.

أما حين تجعل المعنى خادماً لغرور اللغة، فقد تفسد وإن أدهشت.

آية العبادة تقول للكاتب:

لا تكن عبداً للتأثير.

ولا عبداً للتصفيق.

ولا عبداً للخوف.

كن عبداً لله، ثم اكتب.

١٧. العبادة والطمأنينة الوجودية

من لم يعرف غاية وجوده، عاش في قلقٍ عميق ولو ضحك كثيرًا.

قد ينجح، ثم يسأل: وماذا بعد؟

قد يجمع المال، ثم يشعر بفراغ.

قد ينال الشهرة، ثم يخاف سقوطها.

قد يحقق أهدافه، ثم يكتشف أن الهدف كان أصغر من روحه.

لأن الروح لا تشبع بما دون الله.

العبادة هي التي تمنح الإنسان طمأنينةً وجودية.

ليس معنى ذلك أن تختفي آلامه، ولا أن تزول مشكلاته.

لكنها تمنحه مركزًا يعود إليه.

يعرف لماذا يعيش.

ولمن يعمل.

وإلى أين يمضي.

ومن الذي يراه حين لا يراه أحد.

ومن الذي سيجزيه حين يضيع تقدير الناس.

هذه الطمأنينة لا تصنعها الأشياء وحدها.

الأشياء تمنح راحةً مؤقتة.

والعبادة تمنح معنى.

والفرق بين الراحة والمعنى عظيم.

قد يكون الإنسان مستريحًا جسديًا، لكنه مضطرب المعنى.
وقد يكون متعبًا في سبيل الله، لكنه مطمئن لأنه يعرف طريقه.

١٨. العبادة لا تلغي الضعف

قد يظن بعض الناس أن العبد الصادق لا يضعف.
والحقيقة أنه يضعف، لكنه يعرف إلى أين يذهب بضعفه.

إذا أذنب، استغفر.

إذا خاف، فرّ إلى الله.

إذا ضاق رزقه، تذكر الرزاق.

إذا ظلم، طلب العدل دون أن يفقد تقواه.

إذا تعثر، لم يجعل العثرة هويةً نهائيةً.

إذا قام الليل قليلًا، لم يغتر.

إذا فاته القيام، لم ييأس من الباب.

العبودية ليست ادعاء كمال.

إنها اعتراف دائم بالفقر إلى الله.

ولذلك كان الاستغفار في السورة جزءًا من وصف المحسنين.

لم يقل إنهم بلا ذنب، بل قال: (وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

العبد الحقيقي لا يرى نفسه خارج الحاجة إلى المغفرة.

كلما عبد، ازداد علمًا بأنه لم يعبد حق العبادة.

وكلما اقترب، ازداد حياءً.

وكلما عرف الله، عرف فقر نفسه.

١٩. الفرار إلى الله

قبل آية الغاية، جاءت الآية العظيمة: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ
﴿ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾)

هذه الآية هي الجسر بين مشاهد المصارع وآية العبادة.

بعد أن رأت القلوب مصير المكذابين، وبعد أن علمت أن الرزق والوعد عند الله، جاء الأمر: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

عادةً يفر الإنسان من الشيء المخيف إلى موضع الأمان.
لكن هنا يفر إلى الله.

يفر من ذنبه إلى عفوهِ.

ومن جهله إلى علمه.

ومن ضعفه إلى قوته.

ومن ضيق الدنيا إلى سعة رحمته.

ومن خوف الرزق إلى الرزاق.

ومن عبودية الخلق إلى عبوديته.

ومن تشتت القلب إلى وحدانيته.

لا مفر من الله إلا إليه.

وهذه الآية تكاد تختصر الدين كله في حركة واحدة:

ارجع.

لا تقف بعيدًا تتفرج على مصير الأمم.
ولا تجعل آيات الرزق مجرد طمأنة نظرية.
ولا تجعل قيام الليل ذكرى لغيرك.
فرّ أنت.
تحرك.
اخرج من موضع الهلاك.
عد إلى الله.

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾

لأن الفرار إلى الله لا يتم مع بقاء آلهة صغيرة في القلب.
إله الرزق.
إله الخوف.
إله الهوى.
إله المكانة.
إله القوة.
إله النفس.

كلما بقي للقلب إله آخر، كان فراره ناقصًا.

٢٠. النذير المبين

تكررت الجملة: ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

بعد الأمر بالفرار، وبعد النهي عن الشرك.

وهذا التكرار شديد المعنى.

كأن النذارة تحيط بالطريق من جهتين:
فروا إلى الله؛ لأن البقاء بعيداً خطر.
ولا تجعلوا معه إلهاً آخر؛ لأن الشرك مهلك.
إني لكم منه نذير مبين.

النذير ليس عدواً للإنسان.

النذير رحمة.

لأنه يخبرك بالخطر قبل أن تقع فيه.
والنذير المبين لا يتركك في غموض، بل يوضح.

والقرآن كله نذارة مبينة ورحمة مبينة.

لكن الغافل يرى النذارة قسوة، لأنه يحب من يتركه نائماً.
أما المؤمن فيراها رحمة، لأنه يعرف أن الإيقاظ قبل الهاوية نجاة.

٢١. من الفرار إلى العبادة

إذا فرّ الإنسان إلى الله، ماذا يفعل بعد ذلك؟

يعبده.

لذلك جاءت: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

فالفرار ليس لحظة خوف عابرة.

إنه دخولٌ في نظام العبودية.

هناك من يفر إلى الله عند الأزمة، ثم يرجع إلى غفلته إذا زالت.

هذا فرار المضطر فقط.

أما الفرار الكامل، فهو أن تجعل الرجوع إلى الله حياةً دائمة، لا موسمًا طارئًا.

أن تصير العبادة مركزك.

أن تعيد ترتيب رزقك وعملك وبيتك وكلمتك وخوفك ورجائك في ضوء هذه الغاية.

أن لا تعود إلى الآلهة الصغيرة بعد أن عرفت الطريق إلى الله.

٢٢. خلاصة الفصل

تبلغ سورة الذاريات ذروة بيانها في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

هذه الآية تجيب عن سؤال الوجود كله.

نحن لم نُخلق للعبث.

ولا لمجرد الرزق.

ولا لمراكمه الأشياء.

ولا لتأليه الذات.

ولا للركض حتى الموت.

بل خُلقنا لعبادة الله.

ثم تأتي الآيات بعدها لتمنع كل وهم: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾

فالعبادة ليست لحاجة الله إلينا.

بل لحاجتنا نحن إليه.

ثم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

فالذي خلقنا للعبادة هو نفسه الذي تكفل بالرزق.

فلا يجوز أن ينشغل العبد بما ضمنه الله له عن الغاية التي خُلق لها.

والسورة قبل ذلك نادت: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾

فكان البناء كله صار واضحًا:

الوعد صادق.

والدين واقع.

والخراصون في غمرة.

والمتقون في جنات وعيون.

والرزق في السماء.

والتاريخ يشهد بمصارع المكذابين.

والفرار لا يكون إلا إلى الله.

والغاية لا تكون إلا عبادته.

هذه الآية لا تريد أن تضيف إلى الإنسان معلومة، بل أن تعيد تشكيله.

أن يسأل نفسه في كل يوم:

هل أعيش للغاية التي خُلقت لها؟

هل صار الرزق أكبر في قلبي من الرازق؟

هل صارت الشهرة أكبر من الإخلاص؟

هل صار الخوف أكبر من اليقين؟

هل صارت الدنيا أكبر من الوعد؟

هل صارت نفسي إلهاً صغيراً ينازع مقام العبودية؟

إن أعظم خسارة ليست أن يخسر الإنسان مالا أو منصبا أو فرصة.

أعظم خسارة أن يعيش خارج الغاية التي خلقه الله لها.

وأعظم فوز أن يعود إلى هذه الغاية، ولو بعد طول تيه.

أن يعرف أنه عبد.

وأن يفر إلى الله.

وأن يعبد الرزاق لا الرزق.

وأن يمشي في الأرض، وقلبه معلق برب السماء.

هنا فقط يبدأ الإنسان في استرداد نفسه.

لأنه لا يجد نفسه حقاً إلا حين يضعها في الموضع الذي خلقت له:

عبداً لله.

الخاتمة

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ

خلاصة سورة الذاريات ومفتاح النجاة

تبدو سورة الذاريات في أولها كأنها تبدأ من الكون، لكنها في حقيقتها تبدأ من الإنسان.

تبدأ من الرياح، نعم.

ومن الحاملات والجاريات والمقسمات، نعم.

لكنها لا تريد أن توقفنا عند حركة الهواء والسحاب والفلك والأمر.

إنها تريد أن تقول للإنسان: انظر إلى هذا الوجود المتحرك حولك، ثم اسأل نفسك: إلى أين تتحرك أنت؟

الكون لا يقف.

والتدبير لا يتوقف.

والأمر يجري.

والوعد صادق.

والدين واقع.

والرزق في السماء.

والأمم تمضي إلى عواقبها.

والإنسان بين هذا كله قد يظل غافلاً، كأن شيئاً لا يعنيه.

لذلك كانت سورة الذاريات سورة لا تترك القارئ محايداً.

إما أن توقظه.

وإما أن تكشف مقدار نومه.

١. من الريح إلى اليقين

افتتحت السورة بقسمٍ كونيٍّ عظيم: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ۝ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝ فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا﴾

هذه الحركات ليست زينةً افتتاحية.

إنها تدريب للقلب على أن يرى التدبير خلف الظاهرة.

الريح ليست هواءً فقط.

والسحاب ليس بخاراً فقط.

والجريان ليس حركةً فقط.

وتقسيم الأمر ليس مشهداً بعيداً عن حياتنا.

كل شيء في الكون يقول: هناك ربٌ يدبر.

وهناك أمرٌ يجري.

وهناك غيبٌ يحرك الشهادة.

ثم جاء الجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾

كأن السورة تقول: الذي يدبر هذا الكون لا يقول إلا حقاً.

والذي أجرى هذه العوالم لا يعجزه أن يبعثكم، ويحاسبكم، ويجزيكم.

من هنا يبدأ اليقين:

لا من ضيق النفس، بل من اتساع الخلق.
لا من تردد الإنسان، بل من صدق الوعد.
لا من اضطراب الأرض، بل من أمر السماء.

٢. الغفلة حين تلبس ثوب السؤال

ثم كشفت السورة فريقًا آخر: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۖ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۖ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾

هنا يظهر مرض الإنسان حين يرفض اليقين.

ليس كل سؤال بحثًا.

قد يكون السؤال هروبًا.

وقد تكون السخرية قناعًا للخوف.

وقد يكون الخرص طريقة لإبقاء القلب في الضباب؛ لأن الوضوح يطالبه بالتوبة.

الخراصون ليسوا فقط قومًا قالوا كلامًا باطلاً في زمنٍ قديم.
إنهم نموذجٌ متكرر لكل عقلٍ يتكلم في المصير بلا علم من الوحي، ولكل قلبٍ يفضل الغمرة على اليقظة، ولكل إنسانٍ يؤجل الحقيقة لأنه لا يريد تكلفتها.

ولذلك جاء الرد لا كجدلٍ طويل، بل كمشهد: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۖ دُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

ما كان عندهم سؤالاً ساخرًا صار ذوقًا.

وما كان خرصًا صار نارًا.

وما كان مؤجلًا صار حاضرًا.

وهنا نتعلم أن أخطر الغفلات تلك التي تبدو ذكية.

وأقسى الأسئلة تلك التي لا تريد جوابًا، بل تريد أن تبقى بلا التزام.

٣. السهر المجهول

ثم فتحت السورة النافذة الأخرى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿٢﴾

ما الذي صنع هؤلاء؟

(كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿٣﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٤﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٥﴾)

هنا يكشف القرآن سرًا لا تراه العيون عادة.

هؤلاء لم يبلغوا الجنات والعيون بمجرد صورة اجتماعية عن الصلاح.

كان لهم ليل.

وكان لهم سحر.

وكان لهم مالٌ يخرج إلى السائل والمحروم.

قيامٌ خفي.

واستغفارٌ بعد القيام.

ورحمةٌ تمتد إلى المحتاج.

هذه هي هندسة الإحسان في السورة:

صلةً بالله.

وانكسارٌ بين يديه.

ورحمةٌ بعباده.

والأعجب أنهم بعد قيامهم لم يدخلوا الصباح معجبين، بل مستغفرين.

وهذا هو صفاء العبادة:

كلما ازداد الإنسان قرباً، ازداد حياءً.

وكلما طال قيامه، رأى تقصيره.

وكلما اتسعت طاعته، عرف أنها لا تقوم إلا برحمة الله.

قيام الليل هنا ليس ترفاً روحياً، بل مقاومةً للغمرة.

الخراسون في غمرة ساهون، والمتقون قليلاً من الليل ما يهجعون.

السهر هنا ضد السهو.

٤. الرزق في السماء

ثم عالجت السورة واحداً من أعمق اضطرابات الإنسان:

الرزق.

قالت: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿١٠﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿١١﴾ وَفِي

السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ)

الإنسان يفتش عن رزقه في الأرض حتى يذلّ أحياناً للأرض.
ينسى أن الأسباب أبواب، وليست أرباباً.
ينسى أن الناس قنوات، لا خزائن.
ينسى أن العمل واجب، لكنه ليس إلهاً.
ينسى أن السعي في الأرض لا يعني أن القلب يسكن الأرض.
فجاءت الآية ترفع الرأس والقلب معاً: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾

ليست دعوةً إلى الكسل.
بل دعوةً إلى العزة.

اعمل في الأرض، لكن لا تتحن بقلبك لها.
خذ بالأسباب، لكن لا تجعل السبب رباً.
اشكر من أحسن إليك، لكن لا تظن أن رزقك بدأ من يده.
اطلب الحلال، ولا تستبطئه حتى تبيع دينك للحرام.

ثم جاء التوكيد العجيب: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ
تَنطِقُونَ﴾

كأن السورة تخاطب القلق في أعرق موضعه:
كما لا تشك في نطقك، لا تشك في رزق ربك ووعدته.
كم يحتاج الإنسان إلى هذه الآية حين تضيق به الأرض.
حين تغلق الأبواب.
حين يتسلط الناس.

حين تبدو الحاجة أكبر من الكرامة.
حين يوسوس له الخوف أن يترك شيئاً من دينه ليحفظ شيئاً من دنياه.

هناك يسمع: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾

فيستعيد قامته.

٥. بيت إبراهيم: حين تدخل السماء بيتاً

ثم جاءت قصة ضيف إبراهيم عليه السلام.

بيت.

ضيف.

سلام.

عجل سمين.

خوف.

طمأنة.

بشارة.

﴿وَبَشِّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾

ثم دهشة امرأة إبراهيم: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

وجاء الجواب: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

هذه القصة تشرح آية الرزق والوعد في صورة بيتية حية.

الرزق ليس مألًا فقط.

قد يكون غلامًا عليمًا.

وقد يكون بشارَةً بعد عمرٍ طويل من انقطاع الأسباب.

وقد يكون معنى ينزل إلى قلبٍ ظن أنه عقم من الفرح.

وقد يكون فتحًا لا تقيسه العادة.

زوجة إبراهيم قالت بلغة الأسباب: عجوز عقيم.

والملائكة أجابوا بلغة الوحي: قال ربك.

وهنا تتربى الروح على قاعدة كبرى:

العادة محترمة، لكنها ليست ربًا.

والأسباب معتبرة، لكنها ليست حدًا لقدرة الله.

والتاريخ الشخصي مع العجز لا ينبغي أن يكون أقوى في القلب من قول

الله.

ثم انتقلت القصة إلى قوم لوط، حيث الملائكة الذين حملوا البشرى إلى بيتٍ

مؤمن، حملوا العذاب إلى قومٍ مجرمين.

وهذا أيضًا من توازن السورة:

الأمر الإلهي يحمل البشارة لأهل الإيمان، ويحمل النهاية لأهل الإجرام.

٦. مصارع الكذابين

ثم توالى المشاهد:

فرعون.

عاد.

ثمود.

قوم نوح.

لم تسرد السورة التفاصيل، بل وضعت العصب المكشوف في كل قصة.

فرعون تولى بركنه: ﴿فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

عاد جاءتها الريح العقيم: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾

ثمود أمهلوا: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾

ثم عتوا: ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾

فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

وقوم نوح كانوا قومًا فاسقين.

هذه ليست قصصًا للتاريخ، بل مرايا للإنسان.

فرعون هو الركون إلى القوة.

عاد هي الغرور بالبناء والجسد والامتداد.

ثمود هي إساءة فهم الإمهال.

قوم نوح هم طول الأُنس بالإنذار حتى لا يعود يوقظ.

كل واحدٍ من هؤلاء يقول للإنسان: احذر الطريق قبل نهايته.

فالهلاك لا يبدأ لحظة العذاب.

يبدأ قبل ذلك:

عندما يرفض القلب الحق.

عندما يتولى الإنسان بركنه.

عندما يظن أن الإمهال رضا.

عندما تتحول القوة إلى كبر.

عندما يصير الذنب عتوا.

عندما تتكرر الرسالة فلا تترك أثراً.

ثم تأتي الآية الجامعة: **(كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿١﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ)**

تتغير الأزمنة، وتتكرر تهم الباطل.

لأن المرض واحد: الطغيان.

٧. **فَفِرُّوا**

وسط هذه المصارع، تأتي الآية التي تكاد تكون قلب السورة النابض:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

ما أبلغها.

لم يقل: فاذهبوا فقط.

ولا: فتوجهوا.

بل: ففروا.

الفرار لا يكون إلا من خطر.

والآية تجعل الدنيا، إذا عُشت بعيدًا عن الله، منطقة خطر.

فروا من الذنب إلى المغفرة.

ومن الغفلة إلى الذكر.

ومن الخرص إلى اليقين.

ومن الرزق إلى الرزاق.

ومن الخوف إلى الأمان بالله.

ومن عبودية الناس إلى عبودية رب الناس.

ومن الآلهة الصغيرة إلى الواحد الأحد.

ومن ضيق النفس إلى سعة الرب.

الناس يفرون عادةً من الله حين يذنبون.

والقرآن يقول: بل فروا إليه.

لأنه لا ملجأ من الله إلا إليه.

من خفت منه بحق، فاهرب إليه.

ومن عصيته، فارجع إليه.

ومن قصرت في حقه، فقف على بابه.

ومن ضعت بعيدًا عنه، فاعلم أن الطريق لا يزال مفتوحًا ما دمت حيًا.

ثم جاء النهي: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾

لأن الفرار إلى الله لا يكتمل وقلبك يحمل آلهة أخرى.

إله المال.

إله الصورة.

إله التصفيق.

إله الخوف.

إله الهوى.

إله السلطة.

إله الجرح.

إله الذات.

كل هذه آلهة صغيرة، وقد لا يسميها الإنسان آلهة، لكنها تأخذ من قلبه ما لا ينبغي إلا لله.

٨. الغاية الأخيرة

ثم جاءت الآية الحاسمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾

بعد كل هذه الرحلة، تعلن السورة الغاية.

لم تُخلق لتخمن في الغيب بلا علم.

ولا لتنام في الغمرة.

ولا لتعبد الرزق.

ولا لتتولى بركنك.

ولا لتغتر بالقوة.

ولا لتؤجل التوبة حتى الصاعقة.

ولا لتعيش بلا موعدٍ مع الله في ليلك.

ولا لتطعم جسدك وتجوع روحك.

خُلقت لتعبد.

والعبادة هنا ليست تقليلًا من شأن الحياة، بل إنقاذُ لها من العبث.

هي التي تجعل الرزق حلالًا.

والقوة عادلة.

والعلم خاشعًا.

والكتابة صادقة.

والبيت رحيماً.

والليل حيًا.

والمال طريقًا إلى الله لا صنمًا في القلب.

ثم قال: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ
ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾

ما أرحم هذا الختام.

الله لا يطلب عبادتك لأنه محتاج إليك.

بل لأنك أنت المحتاج إلى عبادته.

هو الرزاق، وأنت المرزوق.

هو القوي، وأنت الضعيف.

هو المتين، وأنت المتعب المتقلب.

فلا تقلب المعادلة.

لا تعش كأنك أنت من يحمل رزقك وحدك، وكأن العبادة أمرٌ ثانوي ينتظر الفراغ.

الذي خلقك للعبادة هو الذي تكفل بالرزق.

فقم بما خلقت له، واسع فيما أمرت به، ولا تجعل القلق على المضمون يسرقك من الواجب العظيم.

٩. ذُنُوب الَّذِينَ ظَلَمُوا

وتختتم السورة بإنذار: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِّثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ ۖ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾

الذُّنُوب هنا النصيب من العذاب.

أي أن للظالمين نصيباً كما كان لمن سبقهم نصيب.

لا يستعجلون.

فالذين كانوا يسألون: أيان يوم الدين؟

والذين يستبطنون العذاب استهزاء؛ لا يعلمون أنهم لا يستعجلون خيراً لأنفسهم.

ما أعجب الإنسان حين يستعجل ما لو رآه لتمنى أنه لم يذكره قط.

وتختتم السورة باليوم الذي يوعدون.
كما بدأت بالوعد: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾

بدأت بالوعد، وختمت باليوم الموعد.
وبين البداية والنهاية، رسمت طريقين:

طريق الخراصين الساهين.
وطريق المتقين المحسنين.

طريق من يسأل ساخرًا: أيا ن يوم الدين؟
وطريق من يقوم قليلاً من الليل، ويستغفر بالأسحار، ويجعل في ماله حقاً
للسائل والمحروم.

طريق من يركن إلى فرعون وعاد وثمود.
وطريق من يفر إلى الله.

١٠. ماذا تصنع فينا سورة الذاريات؟

إذا قرأنا سورة الذاريات قراءةً حية، فينبغي أن تترك فينا آثاراً واضحة.

أن نرى الكون بوصفه آية لا منظرًا محايدًا.
وأن نرى الوعد بوصفه حقيقة لا فكرة بعيدة.
وأن نخاف من الخرص والغفلة والسؤال العابث.
وأن نطلب لأنفسنا سرًا مع الليل.
وأن نعامل الرزق بعزة المتوكل لا بذل الخائف من الناس.
وأن نقرأ ببوتنا: هل تصلح للبشارة؟

وأن نقرأ التاريخ: هل فينا بذور طريق الهالكين؟
وأن نفر إلى الله كلما ضاقت الأرض أو اتسعت.
وأن نعيد ترتيب حياتنا حول الغاية الكبرى: العبادة.

هذه السورة لا تريد منا انفعالا مؤقتا.

تريد نقل مركز الحياة.

من الأرض إلى السماء.

من الرزق إلى الرزاق.

من الغمرة إلى اليقظة.

من النوم الكامل إلى السهر المجهول.

من الخوف من الخلق إلى الفرار إلى الله.

من العبث إلى العبادة.

١١. وصية السورة

لو أردنا أن نختصر وصية سورة الذاريات في كلمات قليلة، لقلنا:

لا تثق بعينك وحدها؛ فالغيب أصدق إذا أخبر الله.

لا تغترّ بأمهال الله؛ فالدين واقع.

لا تنم عن الآخرة؛ فإن المتقين كان لهم ليل.

لا تدلّ للرزق؛ فهو في السماء.

لا تيأس من العطاء؛ فقد قالت العادة: عجوز عقيم، وقال الرب: غلام عليم.

لا تركن إلى قوتك؛ فالريح قد تجعل القوة رميماً.

لا تجعل مع الله إلهاً آخر؛ فالفرار لا يكتمل إلا بالتوحيد.
لا تنسَ لماذا خُلقت؛ فالغاية هي العبادة.

هذه السورة مثل ريحٍ قرآنية.
تدخل إلى زوايا القلب المغلقة.
تذرو غبار الغفلة.
تحمل القلب إلى السماء.
تجري به نحو اليقين.
وتقسم في داخله أمراً واحداً:
انهض.

انهض من الغمرة.
انهض من الخوف.
انهض من عبودية الرزق.
انهض من تأجيل التوبة.
انهض من نوم الليل كله.
انهض من خرص العقل حين يستكبر.
انهض إلى الغاية التي خلقت لها.

١٢. آخر كلمة

ليست سورة الذاريات سورة تُقرأ ثم تُطوى.

إنها سورة ينبغي أن تبقى في القلب كنداءٍ متكرر: (فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

كلما خفتَ على رزقك.
كلما كثرت عليك الظنون.
كلما غلبك الذنب.
كلما ضاق صدرك.
كلما شعرت أن الدنيا صارت أكبر من الآخرة في قلبك.
كلما نمت عن موعدك الخفي مع الله.
كلما رأيت قوة الباطل فظننت أنها لا تُقهر.
كلما استوحشت من قلة السالكين.
كلما نسيت الغاية.
فرّ إلى الله.

لا تنتظر أن تكتمل قوتك.
ولا أن يصفو زمنك.
ولا أن تخف أعبائك.
ولا أن تنتهي معاركك.
ولا أن يصفق لك الناس.
ولا أن يزول خوفك كله.
فرّ إليه وأنت خائف.
فرّ إليه وأنت متعب.
فرّ إليه وأنت مقصر.
فرّ إليه وأنت لا تملك إلا قلباً يريد أن يعود.

فإنه سبحانه لم يدعك إلى الفرار إليه ليغلق الباب دونك، بل دعاك لأنه يريد نجاتك.

وهكذا تنتهي السورة، ويبقى أثرها:

الوعد صادق.

والدين واقع.

والرزق في السماء.

والليل باب.

والاستغفار نجاة.

والإحسان طريق.

والتاريخ شاهد.

والعبادة غاية.

والله هو الرزاق ذو القوة المتين.

فمن فهم ذلك، لم يعد يسأل: إلى أين أذهب؟

لقد عرف الطريق:

إلى الله.

والحمد لله رب العالمين

فهرس الكتاب

1. -الغلاف — ص ١
2. -صفحة العنوان — ص ٢
3. -المدخل — ص ٣
4. -الفكرة الحاكمة للكتاب — ص ٧
5. -مقدمة الكتاب — ص ٨
6. -الفصل الأول: بين الريح والوعد
- قراءة في مطلع السورة: ﴿وَالذَّارِيَّاتِ ذُرْوًا﴾ — ص ١٥
7. -الفصل الثاني: حين يصير الغيب أوثق من المُشاهد
- قراءة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ — ص ٤٢
8. -الفصل الثالث: الإنسان بين الخرص واليقين
- قراءة في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ
يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ — ص ٦٥
9. -الفصل الرابع: السَّهَر المجهول
- قراءة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ
كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ
وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ
وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ — ص ٨٨
10. -الفصل الخامس: الرزق في السماء لا في يد الخلق
- قراءة في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ
وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ
فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلٍ مَا أَنْكُمْ تَنْطِفُونَ — ص ١١٨

11. -الفصل السادس: ضيف إبراهيم والخوف النبيل

قراءة في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ — ص

١٤٤

12. -الفصل السابع: الريح العقيم ونهايات المكذبين

قراءة في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾
إلى قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ

مَجْنُونٌ﴾ — ص ١٧٥

13. -الفصل الثامن: سر الوجود كله

قراءة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ — ص ٢٠٥

14. -الخاتمة: ففَرُّوا إِلَى اللَّهِ

-خلاصة سورة الذاريات ومفتاح النجاة — ص ٢٣٥